محمد موسى بابا عمي

بُوپَال

Bhopal

(مذكرات هارب من الموت، ناج من بطن الحوت)

محرم 1431هـ / جانفي 2010م

المقطع "الأول"

أنا... عائلتي... مديني...

(لو كان الفقر رجلا لقتلته)

(عمر بن الخطاب، رضي الله عنه)

بيضاء

✍ كان عمري ليلة الأحد الثاني من ديسمبر (كانون الأول)، سنة أربع وثمانين وتسعمائة وألف، إحدى عشر عاماً...

كنت وديعا، كثير التأمُّل والتفكُّر، مختلفا جدًّا عن أقراني وأترابي، الذين يفضِّلون اللعب على القراءة والمطالعة؛ ومع ذلك فقد حقَّقتُ نتائج متوسِّطة في سنيَّ الأولى؛ ذلك أنني أمقُت الحفظ وترديدَ ما تعلَّمته كالببغاء، وأبحث دوما عن المعنى والسبب كالهدهد... باختصار شديد: عشقتُ التفكير والفهم، حتى جنا ذلك عليَّ وعلى الكثير من مسارات حياتي.

* * * * * * *

✍ والدي عامل في مصنع للكيماويات، ظهرت تجاعيدُ الشيخوخة على مُحيَّاه، وارتسمت آثار المحن فوق جبينه، رغم أنه لا يزال كهلا... لا، بل قد بلغ الأربعين

السنة الماضية...

* * * * * * *

✍ مـدينتي جميلـةٌ جـدًّا في طبيعتهـا، تُطـلُّ علـى بحيرات مائية عريقة، شمسُها ناصعة دائما، وجوُّها دافئ أبدا، لولا أنَّ أهلها عرفوا الفقر والمسكنة منـذ أمـدٍ، فـاقتنعوا بالقليل، وامتهنوا الشقاء، ورضوا بقدرهم رضًا مُميتـا... رضًـا قـاتلا... رضًـا أشـبه بالرضـا؛ ولكنـه مختلـف عنـه قلبـًا وقالبـًا...

* * * * * * *

✍ كان الليل يخيفني كلَّما أسدل سِتره، وأتمنى طلوع الشمس مؤذنة ببزوغ فجر جديد، تمامـا كمـا تمنـى "المهاتمـا غاندي" تحرير بلدي "الهنـد"، مـن بـين بـراثن الاسـتعمار، وفكِّهـا مـن بـين مخالـب "الإنجليـز" المـاكرين الغاصـبين الظالين...

خوفي من الليل مردُّه الفئران، والجرذان، والحشرات، والزواحف اللاسعة؛ بل وأحيانا يُعثر على أفعى هنا أو هنالك، وعادةً ما نسمع عن موت طفل أو طفلة بلسعة مسمومة قاتلةٍ، من حيَّة ماكرة مكرَ المستعمِر...

وممَّا يزيد ليلي ثقلا ورعبا تأوُّهاتُ وصرخاتُ والدي العزيز، جرَّاء قروح في المعدة، التي تؤلمه الألم المبرح الشديد، وتتركه يتلوَّى ويصارع سكرات الموت... وهو يلعن في كلماته وهمهماته: «أمريكا، والعِلْم الحديث، والكيمياء، وحكومة الهند»... هذا الرباعيُّ الخطير الذي أرداه رغما عنه في محنته هذه...

* * * * * * *

✍ ذاتَ يوم اشترى لنا والدي، من حُرِّ ماله الذي ادَّخره، من عرق جبينه، جهاز تلفزيون ملوَّن، صغير الحجم، لا يكبُر عن ورقةَ الكتابة إلاَّ ببغضة إنشات...

كنَّا نحن الصغار نشاهد فيه أفلام "الكارتون" وأفلام "الكابوي" الأمريكية؛ أمَّا الرجال فكان فيلمهم ومسلسلهم المفضَّل هو "دالاس"... ذلك القمقوم الذي يجمعهم على صعيد واحد رغم تباينهم واختلافهم... فتراهم فاغِري الأفواه، لو دخلت ذبابة فمَ أحدهم ثم خرجت لَما أحسَّ بها... وقد يصل عددُ المشاهدين أحياناً العشرون من رجال حيِّنا، فكان فناؤنا الضيِّق الوسخ بمثابة قاعة كبرى للسينما.

لقد رسخ في ذهني ذلكم الصراخ الجماعيُّ على الأطفال، إذا اقترب الواحد منهم إلى مجموع المشاهدين؛ ذلك أنَّ الرجال — في تقديري — يخافون أن تَلتقط عيوننا الصغيرة بعض المشاهد المثيرة من جمال نساء "هوليود"... فكان الصراخ يزداد حدَّة كلَّما كان الطفل أكبر عمراً، إلى أن يبلغ سنَّ المراهقة... فإذا ما تجاوز الثامنة عشر قُبل ضمن فريق الرجال الأبطال، حتى وإن لم يكن متزوِّجا... كأنَّ غضَّ

البصر له عمره، وإلقاء العنان للنظر الحرام له عمره... ولله في خلقه شؤون.

* * * * * * *

✍ أبي مسلمٌ، يصلِّي أحيانا، ويترك الصلاة غالبا؛ فهو يقول لنا: «إنني أصلّي لله بقدر النعم التي أنعم بها عليَّ، ولا أزيد»...

ويستعير — بصوت عالٍ — من الأعرابيِّ الذي قال للرسولَ عليه السلام: "لا أزيد..." مقولتَه؛ لكنَّها مبتسرة مخرومة... ... ثم يردف والدي قائلا: «أتمنى اليوم الذي أصير فيه ثريا مثل مشاهير "هوليود"، ويومَها أظنُّ أنني سوف لن أتخلَّف عن الصلاة أبداً»...

وكان عادة ما يكرّر هذه العبارة بألفاظها على أصدقائه، فيضحك البعض منهم، ويصمتُ آخرون ممن هم أكثر التزاما؛ إلاَّ أنهم لا يملكون العقل ولا الحجة التي بها يُحاجون

والدي... ومن الغريب أنَّ من بين هؤلاء مؤذِّن مسجد حيِّنا، الشيخ الوقور ذو اللحية الكثَّة البيضاء...

* * * * * * *

✍ أما والدتي "شايستا" فهي عالَم في إنسان، وفلتة من فلتات الزمان والمكان: صبورةٌ، حليمةٌ، محسنةٌ، مجتهدةٌ في فعل الخيرات، ومبدعةٌ في إسداء المبرَّات... رغم أنها أمِّية، لا تعرف الكثير عن الدين إلاَّ ما ورثته أبا عن جدٍّ...

من ميزاتها، التي لا ينساها أحدٌ من سكان "بوبال"، نفعُها لأهالي الحيِّ، بما آتاها الله من معرفة تقليدية، وطاقةٍ لا تنفَد؛ فهي قد أخذت بعض مبادئ التطبيب الموروثة عن الجدَّات، وأتقنت صناعة بعض العقاقير من أعشاب غاباتنا الكثيفة المدهامَّات...

وأمِّي – غالبا – تقوم بدور القابلة لكلِّ امرأة يجيئها

المخاض، حتى وإن كانت هذه المرأة زوجةً لأحد خُصوم والدي الكثيرين... ذلك أنَّ الفقرَ مدعاةٌ للنقر، تماما مثل نقر الدجاج بعضها بعضا عند فقدها الطعام الذي يُشبعها... وكان هذا الكرم من والدتي، مع هذه الحال من والدي، سببًا كافيا لنشوب خصومات بينهما، ولا يزال والدي يتفنَّن في الشتم والسبِّ والتعييرِ، كلَّما فقد وعيه واشتدَّ حنقه، ولا تزال والدتي تتلقى ذلك بصمت أشبه ما يكون بصمت البومة...

* * * * * * *

✍ مدينتي اسمها "بوبال"، تقع في إقليم "ماديا براديش" من أقاليم الهند الوسطى، وهي مملكة حديثة نسبيا؛ مؤسِّسها الحقيقيُّ هو "محمد دُست"، وهو جندي أفغانيٌّ هرب من فتنة "دلهي"، بعد وفاة "أورنغراب"؛ ويعود ذلك إلى 1723م.

ومن خصائص مدينتنا أنها كانت تحت حكم "النبَّاب"

بداية، ثم انتقلت إلى حكم "البقَّام"، ثم عادت إلى "النباب" سنة 1947م، أي بعد استقلال باكستان عن الهند.

* * * * * * *

✍ السلطان الحادي عشر من سلاطين "النبَّاب" اسمه " مهانجير محمد خان"، حكمَ بين 1837 و1844، ولعلَّ والدي سمَّاني باسمه، تيمُّنا به وتفاؤلا، واستذكارا لتاريخه ومناقبه... فاختار لي اسمًا مركَّبا، هو: "محمَّد مهانجير"... مجرَّدا من الصفة: "خان"، التي تعني "السيِّد"... فما أبعدنا — نحن أهالي "بوبال" الفقراء — عن مرتبة الأسياد والأشراف.

* * * * * * *

✍ مساحة مدينتنا صغيرة، رغم أنَّ عدد سكَّانها يتجاوز المليون ونصف المليون نسمة، ولذا كانت الكثافة السكانية عالية جدا، إذ يتقاسم الكيلومتر مربع الواحد أكثر

من عشرين ألف مواطن؛ وكأنَّ الفقر والعجز باتا قدرَنا، منذ سقوط آخر سلطان من سلاطين المسلمين على يد المستعمرين البريطانيين أولا، ثم على يد النظام الامبريالي العالمي ثانيًا.

* * * * * * *

✍ يحكي لنا الكبار أنّ أوَّل مصنع للمبيدات، أنشأته شركة أمريكية في ظروف غامضة جدًّا، في أواسط السبعينيات، بالتواطؤ مع حكومة الهند، بزعامة رئيسة وزرائها آنذاك "أنديرا غاندي"... خرِّيجة "جامعة أكسفورد"، وابنت بريطانيا المدلَّلة.

ثمَّ بُني مصنعٌ ثانٍ، وهو أضخم منه بكثير، مِن نفس المجموعة الأمريكية سنة 1978م، أي خمسة أعوام بعد ميلادي، وأوانها لم يكن عدد السكان يتجاوز ثلاثمائة ألف مواطن، إلاَّ أنَّ البطالة والحاجة دفعتا الكثيرين إلى الهجرة

مـن أراضـيهم الفلاحيـة، ليعملـوا بـأبخس الأجـور في هـذه الشركة العملاقة، مما سبَّب تفاقمًـا رهيبـا في عـدد السـكان، حيـث تضـاعف خمـس مـرَّات، وصـار المجمـوع محشـورا كالجراد المنتشر، أو كياجوج وماجوج.

* * * * * * *

✍ أنا الثالث في ترتيب العائلة، تكبرني أختـان همـا "سارا" و"زينات"، وأكبُـر أختـا ثالثـة مدلَّلـة لـدينا جميعـا، اسمها "شريفة"، وكذلك أخًا أصغر بلغ الفطـام منـذ شـهور، وهو يحبُو لإيجاد مكانته في سرب عائلتنا الفقيرة.

✍ كلُّنا مع والدي ووالـدتي، أي سـبعة "نفـر" نقطـن داخل القِصْدير، ولا أقـول نسـكن؛ لأنَّنـا لم نعـرف السـكينة يوماً، تُحيط بنا المياه القذرة من كلِّ جانب، ولا نعرف للغـاز الطبيعي ريحـاً ولا لفحـاً. أمَّـا الكهربـاء فعنـدنا خـيطٌ واحـد منها، يُشعل "لامبا" واحدةً، مع آلة الحلاقة التي يسـتعملها

والدي، والتلفزيون الصغير... ومع ذلك، فهو يكلِّفنا الكثير من المال، ويزيد إلى عنائنا عناء، ويضيف إلى شقائنا شقاء...

* * * * * * *

✍ كانت الهند سنة أربع وثمانين وألفًا في صعود اقتصاديٍّ كبير، تُريد اللحاق بالعمالقة السبعة، وتنافس الصين واليابان، بكلِّ ما أوتيت من قوَّة، حتى لو كان ذلك على حساب سعادة مواطنيها، ولا يهمُّها أن يلحق المسلمين أذًى، ولا أن ينالهم خيرا، ذلك أنَّها تراهن على "الهندوس البراهَمة"، الذين يُعتقد أنَّهم صفوةُ الخلق، وأنهم ملحقون بالآلهة، وأنَّ من حقِّهم أن يأخذوا مال "الهندوس الشودر" أصحاب الطبقة الدنيا والعبيد، ومن مال "المسلمين" الأغيار...

فكانت الدولة تمدُّ هؤلاء "البراهمة" بوسائل الحضارة:

من مدارس، وأموال، ومصانع، وفُرص للتعليم، وإمكانات للتوظيف والسفر... وتحرم غيرهم حرمانا قاسيًّا مفضوحًا.

كنت — لكلِّ ذلك — أعتقد دائما أنَّ ما وقع لـ"بوبال" لم يأت عفوا، بل بتخطيط جهنَّميٍّ بالتواطؤ مع آلة الجبروت الإمبريالية العالمية، تقودها أمريكا ومن لفَّ لفَّها من أمثال مستعمرتنا القديمة بريطانيا... فكان مصنع مجموعة "يو سي سي" (Union Carbide Corporation) كفيلا بتوضيح صورة هذا التواطؤ، وكشف عوَره، بين أعين من يملك أدنى قدر من العقل والفكر والنظر...

* * * * * * *

✍ لا أعرف إلى اليوم، كيفَ أربط بين تاريخين بارزين من تاريخ الهند الحديث: يوم 31 أكتوبر، ويوم 2 ديسمبر من عام ألف وتسعمائة وأربع وثمانين...

أمَّا الأوَّل فيمثِّل يومَ اغتيال "أنديرا غاندي"، وتولِّي

ابنها "راجيف" منصبَ رئيس الوزراء خلفا لها، وهو في سنِّ الأربعين فقط، سنُّ والدي يومها.

أمَّا اليوم الثاني، فهو يوم حدوث كارثة "بوبال"... يومُ اصطلائها واصطلائنا بشتى ألوان المحن والوبال...

المقطع "الثاني"

الليلة المشؤومة...

(إني لأرى في شعوب المدنية الزائفة مَن يجترئون على الخطايا، ويقتحمون حُرم الفضائل والآداب، وفيهم سُكارى الخمر، وسُكارى الإلحـاد؛ ولكـنَّ الدنيا تُرسل عليهم السحب أمطارا، وتُمطر أرضنا صواعق ونارا)

(محمد إقبال: حديث الروح)

بيضاء

✍ بـدت الليلـةُ هادئـةً جـدًّا، مـع بعـض الـبرد الخفيـف، الـذي يتسـلَّل إلى فراشـنا مثـل الزئبـق، أو مثـل شيطان مارد، فيحرمنا لذَّة النوم الهنيِّ... ولقد أخذتني نومةٌ عميقة؛ ذلك أنّي أجهدتُ نفسي بحـرَ ذلـك اليـوم... والـذي يُطيب النوم غالبا ليس هو الفـراش الـوثير فقـط، بـل التعـبُ والحاجة الأكيدة إلى النوم...

✍ علـى وقـع أقـدام مُهرولـة، وعلـى إثـر صَـخب أصواتٍ ناعبـة... وبكـاءٍ... وصُـراخ... اسـتفقتُ مـن نـومي، فقمت على رجليَّ النحيفـتين، مثـل دجاجـة هزيلـة أصـابها هلـع أو اقـترب منهـا الهـلاك... وإذا بصـوت أمِّـي يعلـو وينادي:

– «اهرُبـوا... ثمَّـة غـازات قاتلـة تصَّـاعد مـن المصـنع الملعون...اهرُبوا»

لم أبرح مكاني، خوفا...

ثم أعادت الكرَّة، بصوت حادٍّ النبرة، ممزوج بالبكاء والنحيب:

– «محمَّد... زينات... أبنائي... اهرُبوا... اهرُبوا... لا تبقوا هنا»

فكانت هذه آخر كلمات سمعتْها أذناي من فم والدتي الحبيبة... ولم أدر كيف، ولكننا هرولنا في كلِّ اتجاه، وكنت كلَّمنا شاهدتُ مجموعة من الفارِّين تُسرع نحو وِجهة لحقتُ بهم... والدموعُ تسيل وابلا من عينيَّ، وأنا أبكي وأبكي...وأصرخ حتى اختنقت حنجرتي:

– «أمِّي... أمِّي... أبي... سارا... شريفة... أين أنتم؟»

لا أحد يجيب... فَجأة وقعتُ على الأرض، وفقدتُ الوعي... ولم أستفق إلاَّ بعد أمد، علمتُ حينها أنَّ أحد عمَّال الحراسة الليلية بالمصنع، هرب في الاتجاه الصحيح،

أي في الاتجاه المعاكس لمسار الغازات المميتة القاتلة... فوقعتْ عيناه – بفضل الله – عليَّ، وأنا مُلقًى على الأرض... فحمَلني، وأسرع بي... حتى بلغ غابة كانت برًّا للأمان...

* * * * * * *

✍ الحقُّ أنني لحظة استعدتُ وعيي، وفتحت عينيَ، لم أفكِّر في أحد أبداً... لكنَّني تذكَّرت هول القيامة، وظننتُ أنها هي... فكثيرا ما كانت أمِّي تقصُّ عليَّ ما سيقع عند نهاية الدنيا... وتصوِّر لي الرعبَ، وحالَ الحوامل... وأشياء أخرى... وقد كنتُ أحفظ بعضَ الآيات حفظًا رديئًا مشوَّشاً... آياتٍ تصف الموت، وقيام الساعة، والبعث، والحساب... والجنة والنار... فاستذكرتُها جميعا في تلك اللحظة التي صُدمتُ فيها... وبَدَت لي أكثر وضوحاً من ذي قبلُ...

بعد بُرهـة مـن الـزمن... تبـيَّن لـي أنَّ القيامـة لم تقـم بعدُ... فسألتُ عن أقرب الناس إليَّ:

– «أمِّي... أين هي أمِّي؟».

لا أحد يجيبني...

– «أبي الغالي، على الرغم من كلِّ شيء، أين أنت يا أبي؟»

لا جواب...

– «إخوتي... أخي... أصدقائي...»..

إلى أن سمعني رجل وقور مسنٌّ، فـاقترب منِّـي بهـدوء، وقال:

– «بنيَّ، إنَّ أغلب أهل مدينتنا قد مات... لعلَّ أهلـكَ قد ماتوا كذلك... فانتظر الخبَـر... والْهَـج بالـدعاء للّه الواحد القهار، القـادرِ علـى كـلِّ شـيء، أن ينجـيَهم، وإن ماتوا أن يرحمهم...».

فجعلتُ أكرِّر بصوت خافت:

– «وإن ماتوا أن يرحمهم... وإن ماتوا أن يرحمهم... وإن ماتوا أن يرحمهم...».

✍ قضينا أياما في الجحيم: لا مؤسَّسات إغاثة، ولا أطباء بلا حدود، ولا إعلام دوليٌّ يدوِّخ العالَم بحالنا... ولا حتى حكومُتنا تتحمَّل بعضا من مسؤوليتها... إذ إنها راحت – كما تبيَّنتُ بعد مدَّة – تُدرُّ الرماد على العيون، وتهوِّن من حجم الفاجعة؛ لأنها ضالعة في المسؤولية، وشريكة في الكارثة... ولأننا – للأسف، في تقديرها – مسلمون، وكفى...

مسلمون؟!

– «لكن، أين هم إخوانُنا المسلمون عبر العالَم؟ أين كان المليار ونصف المليار المبثوثون في الجهات الأربعة من الكرة الأرضية؟ أين العلماءُ؟ أين الأثرياء؟ أين

الإعلام؟»... سألتُ نفسي يومها.

الحقُّ أنني اليومَ – بعد عقود من الكارثة – أردِّد مع الشاعر قولته:

أهبتُ فعاد الصوت لم يقض لي حا

جة ولبَّاني الصدى، وهو طائع

وأقول بملء فيَّ:

ناديتُ فارتدَّ الصدى... صدى... دى... ى

✍ ها هي حصيلة القتلى تكبُر وتكبُر، ففي كلِّ يوم تزداد ألفٌ أو أكثر من الأرواح المزهوقة إلى الحساب... أمَّا نحن الأطفال فكنَّا داخل خيام مهترئة، مُنعنا من الخروج، وفُرض علينا ألاَّ نعود إلى بيوتنا مخافة الوباء الفتاك الذي ينبعث من جيف بني البشر المعدودين بالآلاف...

أمَّا الكبار – والرجال منهم بخاصَّة – فكانوا يغادرون المخيَّم باكرا، ويعملون طوال اليوم – بمساعدة بعض الإعانات

المحتشمة من بعض المدن المجاورة – في دفن الجثث جماعيًّا، وهمْ في سباق مع الوقت؛ كونَ الأمراض بدأت تحصد من البشر ما أغفلته الغازات السامَّة... وممَّا يؤسف له حقًّا أنَّ بعض هؤلاء المتطوِّعين لَحِق بعداد الضحايا بعد حين...

* * * * * * *

✍ ذات يوم، بُعيد العشاء، وأنا قابع في خيمتي، أتأمَّل وأسأل حائرا عن مصير عائلتي، لا حيلة لي، ولا ملاذ، إلاَّ الدعاء الذي علَّمنيه ذلكم الشيخ الوقور:

– «اللهمَّ نجِّ أهلي، وإن ماتوا فارحمهم...»

... والليل ليل، يُخيفني ويُفزعني ويقتلني مرَّات قبل أن يَنجلي... بينما أنا كذلك، إذ دخل خالي، شقيق أمِّي الأكبر، فانتصبتُ قائما... لكنَّه أعادني إلى جلستي القرفصاء، كما كنتُ... وركَّز عينية الحمراوين في عينيَّ... ثمَّ

أغمـض، وصـمت... فنزلـت دمعـة مـن عينـه اليسـرى... وتشجَّعَ، وقد توسَّمتُ شرًّا... فقال:

– «محمَّـد... محمَّـد... إنَّ أمَّـك، أعـني أختـي "شايستا"، قد لحقت بربِّها، وأودعتُها أنـا، بيـديَّ هـاتين، قبرَها، بل قبرا كبيرا مع الكثير من النسـاء الأخـريات».

ذاب قلبي كمدا، وابيضَّت عينـاي مـن وطـأة الحُـزن، فجمدتْ عيناي ولم تذرُفا دمعاً... ومـن المصـائب مـا يجفِّـف ويقتل...

– «وأبي؟، سألتُ خالي...»

أجابني دون تردُّد، ولا انتظار:

– «كلُّ أفراد عائلتك لَقوا حـتفهم، ولقـد وجـدوا أبـاك ملقًى علـى الأرض، بـين يديـه جثَّـة أخيـك الأصـغر، يضمُّه إلى صدره الحنون، ليمنع عنه المـوت... ولكـن، ولكن...».

نهض خالي للتو مسرعا، كأنَّ أمرا دهاه، وهو يبكـى بكاء الثكلى، ويردِّد بأعلى صوته:

– «ولكن، ولكن... لعنَ اللّه الغرب، ومن سار علـى دربه، ومـن حـذا حـذوه... اللعنـة... اللعنـة... اللعنة».

✍ تركني جامداً، لا حِراكَ، لا بكاءَ، ولا عقلَ يقدر على التذكُّر أو التفكُّر... دقائق مرَّت كأنَّها مليـون سـنة... لا أحسُّ فيها بشيء، كأنَّني فقدتُ الوعي...بل فقدته يقينـا... لا أسمع صوت أحد، ولا أجد ريح أحد... دقائق...

* * * * * * * *

✍ من بعيد... من أغوار قلبي... من الأعماق... ارتفع صوتٌ يخاطبنـي، صوتٌ هزَّ كيانـي... وكأنَّني اليوم – بعد عقود من الحادثة المشؤومة – أجده غضًّا طريًّا في فـؤادي:

«يا محمَّد، اصبِر، واذكُر الله تعالى، واستغفِر ربَّك، فإنَّ إلهك رحيمٌ بعباده، رحيمٌ بك... رحيمٌ».

ناديتُ بأعلى صوتي، وكأنِّي على اتصال بالملكوت الأعلى، وكأنَّ الدنيا استحالت إلى هباء... ناديتُ، وكأني يونس في بطن الحوت، يوم خاب ظنه من كلِّ شيء إلاَّ من ربه... ناديتُ:

"لا إله إلاَّ الله...

سبحان الله....

أستغفر الله..."

فكانت هذه لحظة تحول في حياتي...

* * * * * * *

✍ علمتُ – بعد أمد – أنَّ عدد الضحايا جرَّاء تلك الليلة المشؤومة، بلغ خمسا وعشرين ألفا، وأنَّه – إلى اليوم، أي بعد أزيد من عقدين – حوالي ثلاثين بريئا يموتون كلَّ

شهر تقريبا، بسبب تبعات تلك المصيبة... وأنَّ أزيد من مائة ألف يُعانون من أمراض مُزمنة، نتيجة تلوُّث المياه... أمَّا الذين ذهب بصرهم فلا يكاد العادُّ يعدُّهم... إنَّهم كثيرون جدًّا...

✍ وعلمتُ من مطالعاتي وبحوثي، أنَّ سبب الكارثة كان بشريًّا وتقنيًّا، ذلك أنَّ الشركة المعنية لم تعتَن بوسائل الوقاية، ولم تَأخذ بأسباب الأمان، وأنَّها قلَّصت الإنفاق على الموظَّفين، فغادر المصنعَ المديرون والتقنيون الأكفاء، ليقوم مقامَهم أناسٌ "لا يكلِّفون كثيرا"، لكنَّهم كذلك "لا يَعرِفون كثيرا"... فقد كانوا يجهلون أبسط إجراءات الحماية...

هذا الذي أودى بحياة شعبٍ كامل... في صمت رهيب، وتجاهل مهيب..

✍ وعلمتُ – والعجب يغمر الجوانح – أنَّ الشركة اختلقت أسطورة "العمل المدبَّر من قبل العمَّال والمواطنين"،

وأنه "عملٌ تخريبيٌّ خطّط له أعداء العولمة، وأصحاب الأفكار الراديكالية"... اختلقت هذه التهمَ لكي تبرِّئ نفسها من أيِّ تبعة، فنصبت المحاكم، وتوالت المحاكمات، في الهند وأمريكا... وكانت البراءة حليفة الجاني، والتهمة من حظِّ الضحية...

وقد قالوا وصدقوا: «إنَّ الدنيا إذا أدبرت عن أحد ألبسته كلَّ المساوئ، وإذا أقبلت على أحد مكَّنته من كلِّ المحاسن»... إلاَّ أنَّ هذه العواقب والأحكام لا تعدو أن تكون مُسوحا قد تخدع الغافلين من بني الإنسان؛ لكنَّها لا تخدع الواحد الديَّان...

✍ أمَّا عن التعويضات فحدِّث ولا حرج، ولقد قارنتُ – وأنا في كبري – بين تكلُفة التعويض لِما سمِّي بضحايا طائرة "لوكربي"، وبين تكلفة التعويض لِما أخفي من ضحايا "بوبال"... فاختلفت عليَّ الحسابات؛ وعلمتُ أنَّ

الإنسان في زماننا ينقسم إلى طبقتين لا ثالث لهما:

الإنسان/الإله... والإنسان/الجماد... فلا وجود للإنسان/الإنسان، بكلِّ معاني الإنسانية، إلاَّ في عالَم المثل والقيم...

عيِّن مبلغ خمسمائة دولار لكلِّ ضحية في "بوبال"... وهي قيمة العجل الحنيد في بعض البلاد... وقدِّر في "لوكربي" تعويض بمبلغ يقارب 3 ملايين دولار، وزِّعت على مائة وثمانية عشر عائلة فقط.

✍ اليوم، بعد خمسٍ وعشرين سنة.... لا يزال المصنع مفتوحا على الهواء، أرضه ملوَّثة بالزئبق السامِّ، وقائمة الأطفال الضحايا مفتوحة، تحكي حقيقة عصر بكامله... وتشهد على حضارات برمَّتها...

المقطع "الثالث"

لحظة التحول...

(....)

بيضـــــــــــــــــــــــــــــاء

"يا محمَّد، اصبر، واذكر الله تعالى، واستغفر ربَّك، فإنَّ إلهك رحيم بعباده، رحيم بك... رحيم" ... ناديتُ بأعلى صوتي:

"لا إله إلاَّ الله...

سبحان الله....

أستغفر الله..."

وكانت هذه لحظةَ تحوُّل في حياتي...

* * * * * * *

انتقلتُ – لحكمة أرادها الله تعالى – من عِداد الموتى، في كارثة "بوبال"، إلى عداد الأحياء... نجوت – بحمد الله وحسن عونه – بمعجزة... لكنَّ التحوُّل الحقيقَ كان في عقيدتي... في قلبي... في إيماني... في وجداني...

في ومظةٍ بَرَق نورٌ ربَّانيٌّ مِن داخلي، يذكّرني بالحقائق الكبرى: الله، والموت، والحياة، والنفس، والآخرون،

والقـيَم، والحـقُّ، والإرادة، والحريـة...فطرحـتُ وابـلا مـن الأسئلة حولها، وأنا لا أزال طفلا يطلُّ على سنِّ البلوغ...

✍ في ذلـك الموقـف الجلَـل، الـذي علمـتُ فيـه أنَّ جميع أفراد عائلتي قد لَقَوا حـتفهم، وبخاصَّـة أمِّـي وأبـي، بدت لي الدنيا قصـيرةً حقـيرةً، لا معنـى لهـا ولا دوام، وأنَّ ثمَّة شيء آخرُ، أعظم وأبقى، يسـتحقُّ أن نعمـل مـن أجلـه، وأن نُخلص له...

* * * * * * *

✍ بعد صمت، وتفكُّر... وبكاء حكيم متَّزن، فتحـتُ عـينيَّ الحمـراوين، وإذا برجـل يحمـل بـين ذراعيـه طفلـةً صغيرة، تعلو علاماتُ البراءة والطهر محيَّاهـا، ووراء الرجـل امرأةٌ، بدت لي أنها زوجته، كانت تقف في ظلِّه الشـاحب، كأنَّها تحتمـي بـه مـن هـول الـمُصاب... فـالمرءُ عنـد الغـرق يحتمي بأصغر قشَّة، ويتعلَّق بأرقِّ خشـبة... المهـمُّ أن ينجـو

وكفى...

رفعتُ رأسي، فقال لي الرجل:

– "السلام عليك... بنيَّ"

أجبته:

– "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته"

ثمَّ سكتُّ برهة، فجلس إلى جنبي، وأخذ بيدي... ثـمَّ مسح على رأسي بعطف ولطف... وقال:

– "بنيَّ، محمَّد، علمتُ من القائمين على المخيَّم أنَّك فقدت جميع أهلك، وأرشدوني إلى خالِك الذي كان هنا ليلة البارحة، فتقرَّبتُ منه بعد أن غادرك، وطلبتُ أن يسمح لي بأخذك معنا... لتكون عضوا في عائلتنا... فقد مات لنا في تلك الليلة ابننا الغالي يونس..."

بنبرة حزينة، سألته مستغربًا:

– "يونس؟"

قال:

– "نعم، يونس، ذلك الفتى الذي كنَّا نحبُّه كثيرا، ونرعاه كثيرا... وهو يقينًا الساعةَ بجوار ربِّه في جنَّات عدن..."

– "يونس، الذي كان مَلَكا يمشي على الأرض، كأنَّه لم يُخلق لهذه الدنيا، ولكنَّه خُلق لما بعدها... كأنَّه آنف أن يجاور العباد، فارتضى جوار ربِّ العباد"

ثم أردف الرجل:

– "محمَّد!... أنت نسخة منه، وهو نسخة منك... فلتكن اليومَ ابنَنا، ولنسمِّك إذا قبلتَ من الآن فصاعدا: "محمَّد يونس"... رجاءً، نادني من الآن: أبي... وناد زوجتي: أمّي...".

* * * * * * *

✍ لم أجد جوابا، ولم أستطع حراكا... جمدت الحروف في حلقي، واغرَورقت عيناي بالدموع، فوضعتُ رأسي بين يديَّ، وبكيتُ بكاءَ يعقوب يوم فقد يوسف... والكلُّ ينظر إليَّ ويرمقني بدفء...

رفعتُ رأسي، وقلت في ثبات ويقين:

– "مادام الله قد كتب لي هذا، فأنا راض بقضاء الله...".

كنتُ ساعتَها في حوار صارخ مع قلبي ووجداني، فكأنهما ينبهاني إلى تغيُّر الخارج بتغيير الداخل، ويحفران في عقلي: "**إنَّ الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**"...

* * * * * * *

✍ بدت الابتسامة والرضا على وجه "أبي" و"أمِّي"

الجديديْن... فانطلقنا...

في الطريق قال لي "أبي الجديد": "إنَّ لي أهلا وأقرباء في "كالكيتا"، وهي تبعد من هنا بـحوالي 1356 كلم، وإنَّا سنشُدُّ الرحال إلي هنالك، لعلَّنا نعيش أيامًا أفضلَ وأسعدَ من أيام "بوبال"، وإنَّا سنأوي إلى العليِّ العظيم، كما أوى الفتية إلى الكهف، ونقول مثلما قالوا: "**ربنا آتنا من لدنك رحمة، وهيئ لنا من أمرنا رشدا**".

✍ من خلال الحوار مع "أبي" عرفت أنَّه مهندس في فيزياء الجوامد، درس في جامعة بـ"نيودلهي"، ثمَّ ساقه القدر إلى "بوبال"؛ وهو مع ذلك حافظ للقرآن الكريم، ملتزمٌ بتعاليم الإسلام علمًا وعملاً...

قال لي:

– «إنَّ مولانا أبا الأعلى المودودي، طيَّب الله ثراه، قد ترك لنا فكرا وأثرًا، وربَّانا على

الحركية والحراك الحضاريِّ المتَّزن... وإنَّا على آثاره سائرون، ولنهجه متَّبعون... وإنَّنا لا نكفِّر أحدا من الموحّدين، ولا نستحلُّ دم أحد من العالَمين، إلاَّ ردًّا للاعتداء... ولا نقبل الذلَّ ولا الهوان ما دمنا مؤمنين موقنين... ديدننا العلم النافع والعمل الصالح، لا غير».

* * * * * * *

✍ قضينا في طريقنا من "بوبال" إلى "كالكيتا" حوالي أسبوعين من الزمان، بين مسافات نركب فيها الحافلة، وأخرى نقطعها بالأرجُل، وثالثةً نمتطي شاحنة أو سيارة نوقفها ونتوسَّل إلى صاحبها فيرقُّ قلبه ويحملنا...

✍ خلال الطريق القصير الطويل، كان فكري يتجوَّل بين ذكريات "بوبال" حلوِها ومرِّها، والمرارةُ غالبة، فكنتُ أستذكر بعض المشاهد التي لا تغادر ذاكرتي:

أمِّي... بحيويَّتها وطيبتها...

أبي... بمرضه وأصدقائه...

صالون التلفزيون... وما يجري حوالي "فيلم دالاس"...

لكنَّ أشدَّ ما ينقضُّ على عقلي وذاكرتي ولا يكاد يغادر، ذلكم الجوُّ الذي كان يسود بين أصدقائي، وبخاصَّة الذين يكبرونني، وقد بلغ البعض منهم سنَّ المراهقة...

كانوا يلبسون "تي شورت"، غالبًا ما يحمل صورة لاعب أو مغنٍّ أو ممثِّل من "هوليوود"؛ فلاعبهم المفضَّل هو "مارادونا"، والغنِّي هو "مايكل جاكسون"، والممثلة هي "باميلا"...

لا يكاد البعض من أصدقائي ينطق اسم هؤلاء المشاهير نُطقا صحيحاً... كانوا يحبِّونهم ولا يعرفون لماذا؟ يحبُّونهم، وكفى...

ثم إنهم يحلُمون... ويحلُمون الساعات الطوال...

بالانتقال إلى جنة الدنيا "أوروبا"، أو إلى الفردوس الأعلى "أمريكا"... ويتحدَّثون عن بعض الأبطال الذين هربوا إلى هنالك، وهم اليوم في بحبوحة من العيش...

- «الواحد من هؤلاء الأبطال يتقاضى خمسة آلاف دولار شهريا، ويسكن في فيلا، ويركب سيارة "كاديلاك"...» كما يقولوا...، ويضيفون:
- «إنَّ آباءنا هنا، في "بوبال"، رغم أنَّ منهم مهندسين أكفاء، إلاَّ أنَّ الواحد منهم لا يجاوز في أجرته عتبة مائتي وخمسين دولار أمريكي».

هذا حديث المراهقين، يحفظونه عن ظهر قلب، ويردِّدونه بينهم مثل قصيدة من الشعر، بنفس العبارات والنبرات، وبنفس الاندفاع والحماس.

- «الغرب هو الجنَّة... والشرق هو الجحيم»

هذا معتقد لا يناقشه أحد، ولا يشكُّ في صحَّة أحد...

معتقَد لا يختلف فيه اثنان... ولا يتناطح حوله كبشان...

✍ أمَّا الفتيات "البوباليات" السمراوات فجلُّ حديثهنَّ عن تسريحات الشعر لمثلات شقراوات من أقاصي الدنيا، ولقد دأبن على مناداة بعضِهنَّ بأسماء الممثلات... كلٌ منهنَّ حسب شبهها أو تشبُّهها...

المهمُّ أنَّ المثلَ هو ذلكم المثلُ الغربيُّ، والذوق هو ذلكم الذوق الأمريكيُّ، والجمال هو ذلكم الجمال "الهوليوودي"... وما سواه فتابع سمجٌ قبيح...

* * * * * * *

✍ وأمَّا الدين، والمسجد، والحجاب، والصلاة، والأخلاق... فكانت في حياة الكثير من شبابنا تقليدية روتينية، مثل طقوس بعض "الهندوس"، غير أنَّ الفرق أنَّ أولئك يؤدُّون عباداتهم بحماسٍ فيَّاض وعاطفة جيَّاشة... أمَّا نحن فالكثير منَّا لا يكاد يعبد ربَّه إلاَّ ببرودة تامَّة، وباحتشام

شديد... كأنهم يمنُّون على الخالق أن اتبعوا دينه وورثوا إسلامه...

وبما أنَّ لكلَّ قاعدة شذوذ، ولكلِّ حكم استثناء... فإنَّ ثلَّة من الناس في "بوبال"، ولعلَّ أبي الجديد كان منهم، سبحوا ضدَّ التيار، وجاهدوا النفس في ضبط المسار، كما هو الحال في أيِّ بلد مسلمٍ اليومَ...

ولقد كان بعض العامَّة يلقبُّون هؤلاء بـ"أهل الآخرة"، لا مدحًا، ولكن تعييرا وتقبيحا لِما هم عليه من "تزمُّت وتشبُّث بالقديم"...

* * * * * * *

✍ يبدو أنَّ الموازين قد انقلبت في بلدنا، قبل أن تنقلب الدنيا... وأنَّ النفوس قد تعفَّنت بالآثام، قبل أن يتعفَّن الجوُّ بالغاز السامِّ... ولقد صار العدوُّ – في منطق الناس – صديقا، والصديقُ عدوًّا... وتحوَّل الجاني – من أرباب

الشركات الكبرى – مثالا، والخيِّرُ من أصحاب الأفكار النيرة وبالا...الديمقراطية دليل تطوُّر، والإسلام عنوان تخلُّف...

* * * * * * *

✍ كلُّ هذه المعاني جالت في خاطري أثناء الطريق؛ لأنَّني يوما بعد يوم... لا، بل ساعة تلو ساعة... أجد من "أبي الجديد" ومن "أمِّي الجديدة" فهماً آخر للدين، وروحا جديدة، وخُلقا رفيعا، وكلماتٍ وحِكما تذيب القلوب، وأفعالا ومواقف تحاكي الخلود...

قرَّرتُ، وأنا في هذه الحال، أن أعود، مباشرة بعد وصولي إلى "كالكيتا"، إلى مقاعد الدراسة، وقد غادرتها منذ سنة ونصف السنة، وأن أطالع للعلماء والمفكرين الكبار؛ حتى أفهم ديني أكثر، وأستوعب معالم عالمي أكثر...

* * * * * * *

✍ هكذا، وصلنا "كالكيتا"... لكنَّ صورة عائلتي

ووالديَّ المرحومين، لا تزال، ولن تزال إلى الأبـد، راسـخة في عقلـي وقلـبي... كلَّمـا تـذكرتهم، وكلَّمـا اسـتعدت أحـداث "بوبال" تألَّمت وبكيت بهدوء... وكلَّما لاحت لي صـورة تلـك المشاهد الرهيبة رفعتُ أكفَّ الضراعة إلى السماء:

«ربِّ ارحم والديَّ كما ربياني صغيرا...

وارحم إخوتي، وأصدقائي... وكلَّ عمَّال المصنع...

وارحم ضحايا بلدتي وبلدي...

آمين... يا ربَّ العالمين... آمين»

المقطع "الرابع"

كالكيتا: العالَم الجديد

(....)

بيضــــــــــــــــــــــــاء

✍ كلُّ شيء كان مختلفا في "كالكيتا"، أو على الأقلِّ كان يتراءى لي مختلفا: البلادُ والعبادُ، الشجرُ والحجرُ؛ لكنَّ الذي يبدو أكثر اختلافا – أوَّلَ وهلة – هو طباع الناس، وأخلاق الناس، وعلاقة الناس بالناس...

* * * * * * *

✍ أمَّا نحن فقد استعرنا شقَّة ضيِّقة في حيٍّ شعبيٍّ، عند بوابة "كالكيتا القديمة"، من أحد أفراد عائلة والدتي... إلى اليوم الذي يسَّر الله فيه عملا محترمًا كريما لوالدي... يومها انتقلنا إلى شقَّة أوسعَ وأرحبَ وأفضل، تمكَّن والدي من كرائها، وهو لا ينفكُّ أن يلهج بالحمد لله على هذا التيسير، ويدفعنا في كلِّ حين إلى أن نحمد المولى ونشكره، وهو يقول:

– «إنَّها دار الدنيا، قد وسَّعها الله علينا، وأكرمنا وأحسن مثوانا... ندعوه سبحانه أن لا يحرمنا الدار الأخرى، وأن ينزلنا الفردوس الأعلى...».

وكان هذا الدعاءُ، بصورته، لا يغادر شفتاي – بلفظه وصيغته – ولا ينفكُّ عن قلبي – بفحواه ومؤداه – طول حياتي؛ فكلَّما نزلتُ منزلا، أو آويتُ إلى غرفة في نزل... وكلَّما دخلتُ مأوى يطول فيه مَقامي أو يقصُر، لهجتُ بهذا الذكر العظيم، واحتميت بهذا الدعاء الكريم...

* * * * * * *

✍ الذي أهمَّ والدي ووالدتي حقًّا، حين استقرارنا، لم يكن المسكنُ ولا المأوى، ولا المأكلُ ولا المشرب... ولا حتَّى الوظيف، على أهميته... لكنَّ أولويةَ الأولويات عندهم هي إيجاد مَن يُعلِّمني، والقدرةُ على تحمُّل تكاليف دراستي، الشرعيةِ منها والرسمية... فكأنَّهما راهَنا عليَّ، ورأيا فيَّ مستقبَلَهم، ومستقبلَ "بوبال"، ومستقبل الهند المسلمة...

ولقد قيل يوما:

– «لا بدَّ لمُدمن الطرق أن يلجَ»

نعم، إنهما أدمنا الطرق في كلِّ بابٍ، بحثًا عن شيخ يلقنني حرفا أو آية أو حكمة... لم يمَلُّوا، ولم تكلَّ عزيمتُهما... لكنَّني، أقول بعد النظر الحثيث في فعلهما:

- «ولا بدَّ لمخلص النية أن يوفقَّ»
- «النية... نعَم، النيةُ تُذيب جبالا من العراقيل، فتُحيلها أرضا سهلا، وتفرش سُبلَها زهرا ووردا... فتحوِّل تلكم المثبطات غذاءً للنجاحات، تماما مثل الثلوج، التي تكون صلبة بعد أمدٍ من نزولها، ثم تذوب، فتَسقي الجنَّات الزاهيات، والنخيل ذات الظلال الوارفات»
- «إنَّ والديَّ، باختصار صدقا في نيتهما... »

بعد محاولات باءت جميعُها بالفشل: إمّا لأنَّ حلقة الشيخ تجاوزت العدد المقبول... أو لأنَّ الشيخ ليس في المستوى الذي ينشُدانه... أو لأنَّه من العلماء التقليديين،

الحريصين على الحفظ والسرد بديلا عن كلِّ فهم ونقد... أو لأنَّه شيخ باع دنياه بآخرته، فطلب مبالغ خيالية، غير معقولة، هي إلى التجارة أقرب منها إلى العلم...

✍ بعد كلِّ هاتيكم المحاولات، التي استغرقت أكثر من ثلاثة أشهر، بعثَ اللّه تعالى شابًّا مسلما، دمث الأخلاق، ضليعا في علوم الشريعة، طُلعة على علوم العصر... شابًّا يتقد حيوية وحركية، كان قد تخرج في معهد من معاهد العلوم الإنسانية، ثم واصل دراسته في جامعة عامَّة... وهو حاليا يحضِّر الدكتوراه... وهو لذلك يجتهد في توفير نفقات إيوائه وبحوثه، وكان التعليم أحد مصادر رزقه...

اسمه "عمر"، بل "الأستاذ عمر"... إذ يصعب عليَّ نطقُ اسمه غيرَ مضاف إلى صفة "الأستاذ"؛ فهو بحقٍّ معلِّم ومربٍّ وأستاذ...

* * * * * * *

✍ كان لي معه ساعتان في اليوم لمدَّة خمسة أيام، وفي يوم الجمعة يدرِّسني من بعد الفجر إلى صلاة الجمعة...

ولقد خطَّ لي أوَّل يوم برنامجا صارما، يستغرق بحر يومي، ويكرِّر كلَّ بداية حصَّة:

– «أنا أوجِّهك... وأنت تعمل... لا خير في تلميذ وطالب علم ينتظر ساعات القسم ليغترف علما...».

الشهور الأولى كانت محرَّرة للقرآن الكريم وللغة الأردية، أقرأ أمامه ما تيسَّر، ويصحِّح لي... ثمَّ آتيه يومَ غد وقد حفظت حصَّتي عن ظهر القلب، وكثيرا ما استعنتُ بوالدي في نطق كلمة، أو أداء آية، أو فهم معنى... وهو لا يملُّ ولا يكلُّ في الجلوس معي الساعات الطوال... يقرأ وأُعيد، حتى يغلبه النوم أحيانا...

وأروع ساعات المدارسة عندي هي ساعات السحَر وساعات البكور، قبل صلاة الفجر بساعة، وبعدها

بساعتين... ولقد كنتُ حينها كمن يتنـزَّل عليـه الـوحي، أو يغرفُ المـاء الـزلال مـن حـوض الرسـول عليـه السـلام بكلتـا يديه...

ألا مـا أسـعدَ مَـن فجـرُه مُضـيءٌ نيـِّر بالـذكر والفكـر والعمل؛ وما أشقى مَن فجرُه مظلم، دائمًـا، بـالنوم والشـخير وأضغاث الأحلام...

* * * * * * *

✍ أبدع الأستاذ في تعليمي اللغةَ الأردية، ذلك أنَّه لقَّنني بعضَ القواعد الأساسية؛ ثم شرع في مرحلة المطالعة... فكان يمدِّني كلَّ حصَّة بكتاب صغير، ويقول:

– «طالِعه بنَهمٍ، ولا تتَّخذه مِروحة لكسلك، وسجِّل كلَّ الكلمات التي لا تفهما، وإذا انتهيت اكتب ملخَّصا لا يقلُّ عن أربع صفحات...»

وكان إضافة إلى ذلك يشجِّعني أن أنقِّب عن خطأ، أو

ملحظ أنقده... ويقول:

- «لا تكن كالببغاء... تذكَّر دوما أنَّك إنسان حباهُ الله بعقل، ولا تنس أنَّ مؤلِّف هذا الكتاب إنسان له عقل... إذ ليس الصواب ولا الخطأ حكرا على أحد، ولا مُطلَقَيْن في فكر أحد».

* * * * * * *

✍ مرَّت سنتان ونصفُ السنة على عجل، فكنت كلَّ يوم أزداد عِلما، وأنتظر اليوم الذي يليه بشغف وأمل... حتى صار "الأستاذ عمر" مثالا لي في الحياة يُحتذى، وأنموذجا، في نظري، للرجل الواعي الحريِّ به أن يُقتدى...

* * * * * * *

✍ وجاء اليوم السعيدُ، الذي يخفي وراءه حُزنا لم أكن أدركه... يومُ حفل التخرُّج "للأستاذ عمر"، يومُ مناقشته

للدكتوراه، وحصوله على الشهادة بامتياز، مع توصية بالطبع، وتبادل لبحثه بين الجامعات...

مباشرة، بعد إعلان النتيجة... ارتجَّت القاعة بالتصفيق، وببعض التكبير:

– «اللّه أكبر... اللّه أكبر...»

فكنتُ مع المصفِّقين، كما كنتُ ضمن المكبِّرين...

حامت حول "الأستاذ عمر" الجموعُ تهنِّئه، وتقبِّله، وتحيِّيه... فلم أُغادر أنا مكاني... إلا ً أنَّ عينيه كانتا ترمقان إليَّ بحدَّة، فكأنه كان يقول:

– «امكُث مكانك، أنا آت إليك...»

فعلاً، توجَّه وجهتنا، فوقف بجوار والدي ووالدتي، ثم أخذ بيدي، فضمَّني إلى صدره ضمَّة شديدة... ذكَّرتني بضمَّة جبريل عليه السلام للمصطفى عليه الصلاة والسلام... فقال، بنبرة عليها مسحة من البحَّة:

– «محمد يونس... أنا مسافر إلى بلدي البعيد، راجعٌ إلى قومي لأنذرهم بما علَّمني الله، فكلُّ أملي، وكلَّ دعائي لله تعالى أن تكون أنت، ابن "بوبال"، وأحد ضحايا المكر والظلم والجور العالمي... أن تكون منارةَ علمٍ وفكر... بل أملي أن أجلس قريبا، بعد أعوام من اجتهادك، أجلس أمامك لأغترف من علمك، أو أطالع إبداعات من مؤلفاتك... أو...».

سكت برهة... كأنَّه أحسَّ أنَّ الكلام قد طال، وأنَّ الرسائل الموجَّهة إليَّ ثقيلةٌ، وأنَّ المقامَ لا يسمح بكلِّ هذا، وقد اختلط الحزن بالفرح عندَه، وامتزج الأمل بالألم لديه...

إلاَّ أنَّ عفويَّته، وحركيَّته، وإخلاصَه، وفراسته فيَّ... كلُّ أولئك غلب التكلُّف والحساباتِ الآنية...

ثم واصل كلامه، بقوَّة وحزم:

– «لكن، محمَّد يونس، لا تكن عالـمًا عالـمًا، لا تكن حلـف القلـم حِلـس القرطـاس... بـل، كـن عالــمًا عــاملا، تنفــع النــاس بعلمــك، كــن رشــيدا... راشدا...مرشدا»...

* * * * * * *

✍ كانـت هـذه اللحظـات صـورةً طبـق الأصـل مـن لحظاتِ مخيَّم "بوبال"... لحظاتِ التغيُّر في حياتي، لحظاتِ نداء الوجدان... ثمَّ خانتني دمعـة حـرَّى لفحـت وجـنتيَّ... بعدها أجهشتُ بالبكاء... وأنا أقول:

– «وداعا... وداعا أستاذي عمر... سأكون كمـا تريـد إن شاء اللّه...وسأعتمد على نفسي... وداعا»

أدارَ ظهرَه، وتوجَّه وجهـة أصـدقائه، ليُخفـي الضـعف البشـريّ الـذي ألمَّ بـه... فانضـمَّ ثانيـة إلى أمـواج المهنِّـئين،

الذين جاؤوا يشاركونه نجاحَه، ولا يعرفون شيئا مما يختلج في قلبه نحوي، ولا يحسُّون بشيئ مما يدور في خلدي نحوه... انضمَّ إلى أمواج البشر، فابتعد... وابتعد...

واختفى

وأنا أردد بألفاظ إلكترونية متقطعة:

«وداعا... وداعا...

إن شاء اللّه... إن شاء اللّه...

سأفعل... وداعا... »

المقطع "الخامس"

أعوام المدرسة والجامعة

بيضاء

✍ أنْهَيت صائفة ذلك العام، وأنا ابن الرابعة عشر، في جدٍّ واجتهاد، وعملٍ ومثابرة... مع بعض الرحلات السياحية القريبة في غابات "كالكيتا"... ولم يكن في بيتنا تلفزيون يسرق وقتي، وكان لي بعض الأصدقاء ألعب معهم الكرة، لكن ثلاث مرَّات في الأسبوع فقط...

* * * * * * *

وفي بداية العام الجديد، قال لي والدي:

- «سألحقك بالمتوسطة الرسمية، والقانون يشترط النجاح في اختبار التشخيص، وإني لم أخبرك عن هذا الاختبار من قبلُ، لأني واثق أنك أكثر تمكنا من لِداتك وأقرانك... لكن، محمد يونس... احذر الغرور، وادخل الاختبار بدعاء وحزم وعزم، وابذل قصارى جهدك...
- محمَّد يونس، تعلّم أن لا تستهين بأمر مهما بدا

صغيرا، فسَقطاتُ العظماء تأتي دائما من صِغار الأمور... لا من كبارها؛ ذلك أنهم يحسبون للكبائر ألف حساب... ولقد سمعتُ يوما مثالا أعجبني، ولا أعرف مصدره، يقول: "العود الذي تحقره قد يُعميك"، وسمعتُ بيت شعر أبلغ من هذا المثال، يقول فيه صاحبه:

لا تحقرن صغيرا في تقلبه * * * إنَّ البعوضة تُدمي مقلة الأسد»

قلت:

- «شكرا والدي، سأكون طيِّعا لأمرك... وبخاصَّة أني قرأت أسطورة البعوضة التي أطاحت بكبرياء النمرود لعنه الله».

✍ دخلت الاختبار، وكانت النتيجة قريبة من مائة في المائة؛ ولقد ألحقوني – بحمد الله – بعد مشورة في مجلس الأساتذة، بالقسم الثالث مباشرة، عوض الأوَّل أو

الثاني...

* * * * * * *

✍ بـرُوتين شـديد في المدرسـة، مـرَّت السـنتان، ونجحتُ بتوفيق مـن الله في امتحـان الـدخول إلى الثانويـة... ثم تسـارع الـزمن، فانتهـت مرحلـة الثانويـة برتابـة لا تقـلُّ درجة عن رتابة المتوسطة...

ومع ذلـك، لا أزال أتـذكر معلِّمـيْن تركـا بصـماتِهما في مساري الدراسي... أحمَدُ اليوم فعلَهمـا، وأذكرهمـا بخـير... إنهما كانا مختلفيْن عن المعتـاد... ولم يكونـا مجـرَّد مـوظفيْن عاديين...

✍ بيسر حصلت على الباكالوريا، متعجبا مـن طلبـة في قسْمِي جعلـوا الفشـل في الشـهادة بمثابـة نهايـة العـالَم... واعتقدوا أنَّ الحصول عليها إيذان ببدايـة العـالَم... فقـدَّروها أكثر من قدرها، وما عملوا لها كمـا يجـب أن يعملـوا، وكمـا

حضَّروا لها كما ينبغي أن يحضِّروا...

* * * * * * *

✍ أما من جهتي، فكنت من يوم غادر "الأستاذ عمر"، إلى يومِ الحصول على الباكالوريا، أضعُ برنامجا زمنيا، وأنفِّذه حرفيًّا، وبصرامةٍ... تُقلقني أحيانا، ولكن العواقب دوما تنسيني المتاعب...

الحقُّ أنني أحيانا أمِيل إلى الفتور، وأحيانا أخرى أُصاب بالملل، ولكَم تأثَّرت بكلمات أسمعها من أقراني، فحواها أنَّ المستقبل للمال لا للعلم، وأنَّ الشباب ينبغي أن يستغلَّ في اللعب... فكان والدي، حفظه الله، حِصنا حَصينا لي، وهو دوما يردِّد على مسامعي مقولة القائل:

«عند الصبح يحمد القوم السرى... ويقرأ عليَّ بتوأدة قوله تعالى: "**والعاقبة للتقوى**"، ثم يردفه بقوله تعالى: "**قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنَّما يتذكَّر**

ألوا الألباب"».

* * * * * * *

✍ دخلتُ عتباتِ الجامعة، وكلِّي أمل أن ألاقيَ عالَما جديدا لَطالما حلُمتُ به؛ فكانت الصَّدمةُ، وكانت الانتكاسةُ النفسية... لا شيء في الجامعة يختلف عمَّا في الثانوية... لكأنَّ الجامعة ثانوية كبيرة، هرمت وشاخت...

ولا أزال أذكر نصيحة قرأتها في كتاب بديع، خلال الشهور الأولى من التحاقي بالجامعة، وأجتهد في العمل بها، ولا آلو جهدا في تخطِّي عقبات النفس والمحيط، متبعا الأسباب، معتقدا أنَّ السداد والإمداد بيد الله وحده...

نصُّ هذه الكلمة:

«إنَّ الجامعة هي أنت...

وإنَّ الجامعة هي المكتبة...

وإنَّ الجامعة هي ساعات اجتهادك في المطالعة، وفي

الحفر في الكتب والبحوث والمقالات...

وما سوى ذلك فمكمِّل، وموجِّه... إن حسُنَ فبها ونِعمت... وإن ساء فلا عليك...

لا تُلق باللوم على أحد... إن كنت جادًّا مجتهدًا»...

بهذه الروح، ولهذه الأسباب، استعدتُ الثقة في النفس، ووصلت الليل بالنهار، فاعتبرت نفسي مجاهدا ومرابطا في ثغر من ثغور الإسلام، إنه أعظم ثغر وأقدس رباط: العلمُ النافع...

* * * * * * *

✍ أبدعُ ما ميَّز أيام الجامعة، تلكم الأوقات الغالية التي أقضيها أمام المصادر والمراجع، ألتهمها بنهمٍ وحرصٍ شديد، وأجلس إليها بتركيز وعقل حَديد... وأَبْدَعُ من ذلك، تلك الأوقات النى أعدُّ فيها بحوثي، وأنسجها كما تنسُج

اليد المرهفة سجَّاداً إيرانيا، وأرسُمها كما كان بيكاسو يرسم لوحاته...

ولكَم تحسّرتُ وتأسفتُ من بحث بذلت فيه جهدا، ثم راح الأستاذ يقدِّم النقاط بقياس طول البحث وعرضه، أي بالسنتيمتر... فيغمطني حقِّي، ويغمط حقَّ كلِّ عامل، ويقضي على كلِّ من هَجر الكمَّ وآل على نفسه أن يحرص على الكيف... والحقُّ أنَّ النقطة لم تكن لتهمَّني بالدرجة الأولى، لكنَّ النقد والاهتمام العلميِّ، هما مأمولي وبغيتي...

* * * * * * *

✍ في سنة التخرج كانت لي أستاذة مختلفة تماما، نصحتني بإجراء بحث لا يزيد على خمسين صفحة، على أن تشرف هي عليَّ، شريطة أن أخرج فيه عن الوصف والسرد... إلى التحليل والنقد والإبداع... ففعلتُ، وحمدتُ للأستاذة فعلتها...

* * * * * * *

✍ لم تغب "بوبال" عن ذاكرتي، ولم تغادر "بوبـال" قلبي... فكلُّ اجتهادي – إن اعتُبر اجتهادا جديرا – مبعثُه ودافعه هو "بوبال"...

كنتُ أريد أن أنتقم لها: أولاً من الغرب الظالم، وثانيـا من المتواطئين مـن أبنـاء وطـني، وثالثـا مـن التخلـف والمذلـة الذيْن ألَّا بنا قبل الكارثة...

– «أنتقم؟!»

– «لكن، كيف؟ وبماذا؟...»

كنت أخاطب ذاتي بصوت جهوريٍّ، متشبِّها بسـيدنا عمر بن الخطاب عليه السلام، وأقول لها:

– «أَعلمُ أنَّ الحقد والانتقام للـنفس محرَّمـان في ديـني الحنيف... غير أنِّي، أعلم كـذلك أنَّ الغـيرة علـى الـدين، وعلـى الحُرمـات، وعلـى الأهـل، وعلـى

البلد، وعلى كلِّ قيمة كبرى من قيم الحياة... أعلمُ أنَّ الغيرة من كلِّ أولئك هي من صميم إسلامي...»

يجبني عقلي، وقد تفطَّر:

– «جيد، لكن كيف تنتقم؟ وممن؟ وبماذا؟...»

وأسئلة الكيف دوما محيِّرة، ودافعة إلى الواقعية...

ولطالما فكَّرت في عمل قتاليٍّ، أو عمليةٍ جهادية... أشفي بها الغليل، وأسرِّع بها عجلة الزمن، وأغسل بها العار... فأنتقم وكفى...

وفي الشوط الأخير، دائما، يقفُ ضميري حائلا بيني وبين الانتقام الدمويِّ، وينادي بأعلى صوته...تماما مثلما جاءني متبخترا ليلة مخيم "بوبال"... يقول لي:

– «إنَّ المسلمين اليومَ أحوجُ ما يكونون إلى صناعة الحياة منهم إلى صناعة الموت... فالعالَم الغربي، الإمبريالي، الليبرالي، آلةٌ تحصد الأرواح من قبل

أن تولد، بمنع الحمل والإجهاض، أوَّلاً... وتزرع الموت بالمواد الكيماوية والأدوية والأغذية المعدلَّة جينيا، ثانيا... وما تسلَّل من شبكتها الفتَّاكة استقبلَته الحروبُ والفتن الداخلية التي تُصنع في مخابر الغرب، وتصدَّر إلى الشرق عبر بعض قلوب أبنائه وعقولهم...»

هل صدق من قال:

– «الغرب هو الموت، والموت هو الغرب؟»

قال لي ضميري:

– «إنَّ الروح لتغرُب عند عتبة البلاد العُظمى... ولكنَّ العقولَ الساذجة، والأفئدة البليدة... لا تفهم ذلك ولا تَعيه... إنَّها تنظر إلى العالم بعين مادية المظهر، إلحادية المخبر، داروينية المنهج، نيتشاوية المنطق... إنَّها النظرة التي ورَّطت

العالَميْن الشرقيَّ والغربيَّ على السواء...».

واسترسل الحديث الحكيم، فقال:

- «الشرق والغرب – جميعا – ضحايا هذا التوجه العولمي، الشرق بغفلته، والغرب بغروره.... فالجميع إلى الجحيم في تقدير المخططين لهذا المنزلق الخطير... تواطؤ وفساد لم يعرف التاريخ له مثيلا، من لدن آدم عليه السلام، إلى يوم الناس هذا...».

* * * * * * *

✍ «إذن، أنتقم نعم... لكن، كيف أنتقم؟».

تجمَّعت مداركي، ومعارفي، ورؤاي... فأجابت بوضوح:

- «إذا أردت فعلا أن تنتقم لـ"بوبال"، فينبغي عليك أن تقود ثلاثة معارك: معركة **الفهم**، ومعركة

الوعي، ومعركة **الفعل**...

– **فالفهم** السقيم هو الطامَّة الكبرى، **والوعي** الغبيُّ هو الحالقة، والعجز عن **الفعل** هو عين النفاق».

إني وجدتُ الكثير من الناس فهموا ووعوا — فيما يبدو — غير أنَّهم أصيبوا بعقم في الفعل... فهم يملؤون الدنيا كلاما وخطابة... وتنظيرا وتحليلا... ثم لا يلبثون أن يخلدوا إلى نومهم "الحضاري" العميق العقيم... هؤلاء هم "أذيال الغرب" الذين يحبُّهم حبا جما، ويبني المزارع والإسطبلات لرعايتهم وتربيتهم والاعتناء بهم...

قررت الانتقام لـ"بوبال" **بالفعل**، فكنتُ بحمد الله ولا أزال، إذا استوت فكرةٌ في عقلي، وظهر صدقُها بالتداوُل والمشورة، بادرتُ في إنزالها حيَّةً يافعةً إلى أرض الواقع وإلى حلبة الحياة... وإن عجزتُ عن ذلك دعوتُ غيري... داعيا إلى الخير والبر والعدل، ما استطعت إلى ذلك سبيلا...

* * * * * * *

✍ كثيرا ما يتوقف العقل عن التعبير عمَّا يختلج في أعماق الضمير... وعمَّا ينبغي أن يكون... فيزحف الوهمُ والخوف إلى القلب، ويُبالغا في الإلحاح، ويُدمنا الطرق، ليلجا ويستقرَّا... بعيدا... هنالك...

ومن أسف، أنَّ الواقع غالبا ما يكون ظهيرا لهذين اللصِّين: الوهم والخوف؛ فتهيج الشكوك هيجان الطحالب، وتنقضُّ على ضعاف النفوس، وتقول، وتعيد:

- «اصمُت يا هذا أو تكلَّم... اعتقد يا هذا أو ألحِد... اِفعل يا هذا أو أخمُد... فإنَّ الواقع والناس، وإنَّ النكسات المتوالية، كفيلةٌ بإلجامك، وحرية بالقضاء على غرورك وصلفك، وجديرة بدفن تفاؤلك وادعائك...».

✍ أجد مثل هذه الساعات التي يتسلط فيها الوهم

والخـوف، ويتوقـف فيهـا العقـل عـن الإدراك الصـحيح... أجدُها ثقيلة على النفس، فهي مصرع الشباب المسلم اليوم... ولكـنني بحمـد الله دومـا أعـود فـأتحكَّم في النـزال، وأفـوز بالجولات، أحيانا بضربة قاضية، وأخرى بالنقاط..

أقول بملء فيَّ مغالبا أوهامي، ولا أبالي:

- «أنا لا أتكلَّم دون فكـر، ولا أنـتقم بمجـرَّد الحـبر، ولا أدَّعي، ولا أنثني... لكنني أخطِّط وأنفذ، أفكِّـر وأنجز... حتى وإن بدا فِعلي صغيرا حقيرا... ذلك أنَّ معظم الخير من قليل القطر، والأنهارُ العاتيـات بداياتها سُحب خفيفة رقيقة مهينة... ثم تتجمَّع، وتكبُر، وتعظُم... فتثق في ذاتهـا، وتلقـي بقـوَّة مـا بهـا... وتذوب، وتسيل... وترعُد... وتـبرُق... ثـم تفترق قطرة قطرة... في السماء... لتتجمَّع بعد ذلك فوق الأرض... فتصير أنهـارا ووديانـا، وشـلالات

وبحارا... ».

علَّق الضمير، وهو يعلنُ حقيقته، ويسمو بالجسد إلى عليائه، هازئا من بنيَّات الطريق... علَّق بصوت خافت واثق، وبكلمات قليلة معبِّرة... علَّق، فقال:

«كذلك أنا... كذلك أنا... كذلك أنا... ».

المقطع "السادس"

في بطن الحوت... أو ظُلمات التخلف...

بيضـــــــــــــــــــــــــاء

✍ عندما اجتزتُ عتبة الثلاثين، وقد أنهيت مرحلة الجامعة، استقبلتني الحياة الوظيفية بكلِّ ترحاب؛ لشهاداتي العليا... ربَّما، أو لفضولي ومعارفي وإصراري...ربَّما؛ المهمُّ أنَّني حُظيت بانتصارات تتلو انتصارات... في الوظيف، والرزق، والعائلة، والمكانة... وكلِّ ما من شأنه أن يهب الكرامة لإنسان مثلي...

* * * * * * *

✍ تجمَّعت لديَّ كلُّ الأسباب: أسباب القلب، والنفس، والعقل، والبيان، والجسم، والمال... ولكنني، مع ذلك، بتت عاجزا عن تغيير العالَم، وقد ظننتُ في سنيّ الدراسة والجامعة أنَّني سأغيِّره حتمًا...

* * * * * * *

✍ مع طول التفكير انشطرت شخصيتي شقَّين، وانفصلت أفكاري حِزبين... فكان حالي مثل حال الرسوم

المتحركة التي يسهل في منطقها كسرُ جسمٍ وتفتيته شظايا، ثم لمُّه وتجميعه كما كان... وأسهل منه قصُّ جسم الفأر أو القطِّ أو أيِّ حيوان أو إنسان أفقيا وعموديا، ثم لصق الصورة بعد ذلك، لتذبَّ الحياة فيه، مثل حالتها الأولى...

لقد كنت أشبه شيء بهذه الأسطورة الكارتونية العجيبة...

أمَّا الشقُّ الأوَّل، والحزب الأوَّل، فسميته "**محمَّد**"...

وأمَّا الشق الثاني، والحزبُ الثاني، فاصطلحتُ علي تسميته "**يونس**"...

* * * * * * *

كان "**محمَّد**" واقعيًّا جدًّا... ينطلق من الأحداث والوقائع ليفهم الأفكار والدلالات... وهو يمقت المثالية، ويكره التحليق في المجرَّدات...

قلتُ:

– «لعلَّه اكتسب هذه الصفة من بدايات عمره، ومن أيام بوبال»...

وأمَّا الشق الثاني، والحزب المعارض: "**يونس**"، فكان عميق التفكير، دقيق الملاحظة، عاشقا للتخطيط والتنظير... يسبر أغوار النصوص والمراجع، ويسبح في المعاني والقيم... ثم يقيس الوقائع على المُثُل... فإن وافقتها قبلها واحتضنها، وإن خالفتها مجَّها ولفظها... لا تهمُّه المصلحة الآنية، ولا تعنيه مقالةُ الناس فيه...

✍ ذاتَ ليلة، ولم يعد الليلُ شبحاً كما كان، احتدَّ الجدال بين "**محمد**" و"**يونس**"... بين "الحزب الواقعي" و"الحزب المثالي"... فعبَّر كلٌّ منهما عن حقيقته، بلا مهادنة ولا مداهنة... وكشَف كلٌّ منهما عن أصله ومنهجه وخياراته، بلا مداراة ولا محاباة...

✍ "**يونس**":

- «تأمَّل يا "**محمَّد**"، الحقُّ دوماً هو الغالب، والباطل أبدا هو المهزوم... حتى وإن طال الزمن»

لهذه الجملة البسيطة، نشبت الحرب الكلامية، واحتدَّت المطارحة الفكرية، فنزلت الأدلَّة والأمثلة إلى الحلبة لتدعم صاحبها، فاستحضر المتحاوران كلَّ ما يدعم موقفهما...

✍ **أجاب "محمد"**:

- «يا "**يونس**"، إني أرى خلاف ما تدَّعي، فما عُرِف أنه حقٌّ، في زماننا، ضعيفٌ مستكين مهزوز... أمَّا ما وُصف بأنه باطل، فقويٌّ وعزيز ومنتصر... أنا لا أبرِّر، ولا أقبل أو أرفض بالضرورة... لكن، هذا هو الواقع، وهذه هي الواقعية... فأنا لم أفهم، ولم أستطع أن أعمِّيَ

على عقلي، ولا أن أبلِّد فكري بمثل ما ذكرتَ من أحكام مُقَوْلبة جاهزة معلَّبة...»

هـزَّ "**يـونس**" رأسَـه... تملَّكـه العجـب... ثـم رمـق "**محمَّدا**"... فكان كمن أصيب برعشة، وضـاقت عليـه سـبل الإجابة... فلاذ بالصمت... ولم يجب...

ثم واصل "محمَّد" حديثه، مسترسلا:

- «يُقال إنَّ عمرَ الباطل قصير، وعمرَ الحق طويل... غير أنَّ تاريخنا الإسـلاميَّ يكـذِّب ذلـك... فلقـد سقطت الخلافة من يـد الأصـحاب سـنوات بعـد وفاة سيدنا محمَّد صلى الله عليه وسـلم، فتلقَّفهـا الأعراب، وتربَّعوا على عرشها قرونا طويلة...
- ولقد تقاتل الصحابة الكرام، وهم قدوتُنا، وهم مَن وصفوا بأنهم كانوا معَ رسول الله عليه السـلام في قوله جلَّ مِن قائـل: "**محمَّـد رسـول الله والـذين**

معه أشدَّاء على الكفار رحماء بينهم..."...

نعم، تقاتلوا، حتى إنَّ من المؤرِّخين مَن ذكر أنَّه في معركة واحدة مات من الطرفين المتقاتلين تسعة آلاف جنديٍّ مسلم، ما بين صحابيٍّ وتابعيٍّ... وهو عدد يفوق عدد شهداء بدر الكبرى بأكثر من مائة مرَّة...

- أنا لا أشك في عدل الصحابة ولا التابعين، ولا أجرِّح أحدا منهم، ولكنَّني لم أفهم، ولم أجد الجواب الشافي للذي جرى بينهم...»

✍ راح "**محمَّد**" يعدِّد هزائم المسلمين وخلافاتهم عبر التاريخ... وهو طُلعة ومحبٌّ للسيَر وكتب التأريخ... ولم يعدِم أدلَّة من المصادر والمراجع المعتمدَة المشهورة المعتبرة... حتى أغراه تحليله؛ فظنَّ أنَّه قد انقضَّ على فريسته، وأرداها أرضا، فحمل راية الواقعية خفَّاقة...

... صال، وجال... ومن سخرية المشهد أنَّ يونس كان مهتمًّا منتبها مركّزا...

... إلى أن وصل القرنين الأخيرين، فلم تصادفه أيُّ صعوبة في انتقاء الأمثلة والشواهد... وهو أحيانا يخلط المثال بالدليل، فيجعل المثال منطادا للتعميم ... أطال الحديث في سقوط الخلافة العثمانية، وأسباب ذلك، وعن دخول جلِّ البلاد الإسلامية في عداد المستعمرات... كأنَّها الشياه الذليلة المنصاعة بلا احتجاج ولا مقاومة لمفترسيها وغاصبيها...

✍ **قال "محمَّد"، بصوت تعلوه أمارات الثقة والوثوق:**

- «أمَّا عن سِجالنا مع اليهود، وحربنا مع الدولة الصغيرة إسرائيل، من الأربعينيات إلى اليوم... فلا تسل... وأمَّا عن سقوط بغداد، بيَد أمريكا، فحدِّث ولا حرج»...

لم ينتبه "**يونس**"، لشدَّة تركيزه وحيرته، إلى أنَّ محمَّدا امتطى صهوة الأسلوب الخطابي، وأنِّه وقع في بعض المغالطات المنطقية...

واصل البطلُ "محمَّد" تحليله:

- «انظر أخي "**يونس**" إلى ما جرى في العديد من البلدان الإسلامية، ولم يقع مثله في بلاد الغرب... انظر إلى الحرب الأهلية في الجزائر، وفي مصر، وفي السعودية... واليوم، في السودان، واليمن... أليس كلُّ ذلك دليلا على أنَّ مثاليتك ليست صادقة... أم تُراك تشكِّك في إسلام هؤلاء المتناحرين المتقاتلين؟!»

✍ قاطعه "**يونس**"، كأنِّه كان يبحث عن منفذ واحد يلج من خلاله إلى بالون الأفكار الذي نفخه "**محمَّد**"، حتى بدا في حجم العالَم أو أكبر... قاطَعَه، متعجِّبا سائلا:

– «لماذا تبالغ يا "**محمَّد**"... لم يقع شيء يسمَّى حربا أهلية في تلك البلاد الإسلامية التي ذكرتَ... وإنَّما هو إرهاب دوليٌّ... صنَعَه الغرب في مخابره... إنَّه أمرٌ دبِّر بليل؛ للتشكيك في الإسلام والمسلمين...

– إرهاب دوليٌّ... لا حروب أهلية... يا "**محمَّد**"»

لكنَّ "**محمَّدا**" كان أكثر وضوحا في هذه النقطة، وكان أكثرَ تحكُّما في سياق الحوار (الجدل).... فبغث "**يونس**" بسؤال تعجيزيٍّ:

«من القاتِل، ومن المقتُول... ومن المُجرم، ومن الضحيَّة... في هذه الفتن التي سردتُها؟»

لم يجب "**يونس**"...

فسارع "محمَّد" إلى الإجابة الحتمية في نظره:

– «القاتل والمقتول على السواء، هم جميعا من إخواننا المسلمين، جميعُهم يشهد أن لا إله إلاَّ الله، ويصلِّي، ويصوم... أم تُراك تخرجهم من زمرة المؤمنين؟!»

* * * * * * *

✍ سادَ جوفَ الليل صمتٌ رهيب... وبدا القمرُ شاحبا أكثر من ذي قبل، وولَّت النجوم كأنَّها تحملُ جنازة إلى مقبرة الوجود... فتعالى نعيب البوم، ونعيق الغربان... واختفى عرير الصراصير، ونقيق الضفادع...

فتوقف الحوار... لا، بل الجدال... ساعةً...

شُحِن قلب "**محمَّد**" فرحا فيَّاضا، وملئ فؤاده اعتزازا بالانتصار... علا قلبَ "**يونس**" حزن خافتُ، واعتراه ألمٌ من هول الانهزام... فمُقابلةُ الفكر بالفكر، وانتصار الفكر على الفكر، وانهزام الفكر أمام الفكر... أشدُّ وقعا على النفس،

وأوغر أثرا في الوجدان... من مقابلة كرة القدم، أو الجيدو، أو الملاكمة... أو أيَّ رياضة أخرى... ولكنَّ أغلب الناس لا يعرفون ولا يدركون...

ثمَّ، ما لبث "يونس" أن استعاد أنفاسَه، ورتَّب أفكاره، ولاذ بالثقة والطمأنينة، فاستوى قائما، وقال:

- «يا "**محمَّد**"، أعرفُ أنَّ ما ذكرتَه إنَّما هو في قاموس المظاهر والظواهر حقائق لا غبارَ عليها، وأعرف أنَّك لا تؤمن في قرارة قلبك بما تقول... ذلك أنَّ ضميري هو ضميرك، وأنَّ ضميرَك هو ضميري... لا غير... وإنَّما اختلفنا في التعبير عمَّا يجول في نفس النفس... فلا ضير...»
- «"**محمَّد**"، إنَّك قرأت كثيرا للكتَّاب المشكِّكين، ولم يكن شكُّهم بغرض البحث، لكنهم — للأسف — أخطئوا في المنطلق فضلُّوا في العاقبة... انحرفوا

بزاوية صغيرة في البداية فكبُرت الزاوية حتى ملأت الآفاق في النهاية... »

- «قرأتَ الرصافي وأركون، وفرج فودة وغليون... ومن لفَّ لفَّهم... لكنَّني أذكر أنَّك لم تستسلم يوماً لأوهامهم، ولم تنخدع أبدا بتهويماتهم ومغالطاتهم؛ واليوم انجلى الموقفُ، للأسف، عن ترسُّبات تلك الأطروحات المنحرفة في جوف عقلك... وعقلُك وعقلي مختلفان متباينان...»
- «وها هي اليوم – تلك الأطروحات – تستيقظ بلا سابق إنذار، مثلما تستيقظ في الملايين من عقول الشباب المسلم بين الحين والحين...»
- «**"محمَّد"**، تذكَّر أنَّك في تحليلك المظلم، وفي تجميعك للنقاط السوداء من التاريخ الإسلامي، إنَّما كنت متصيدا للسقطات، جمَّاعة للفُتات...

شأنك شأن إسفنجة بيضاء راحت تنظِّف زجاجة كبيرة مصقولة، في واجهة سيارة جميلة بديعة، معرَّضة لشتى أنواع الغبار، ولمختلف الحشرات الصغيرة الطائرة، والأوساخ المتلاشية... فهل، يا "**محمَّد**"، تنتظر من تلك الإسفنجة أن تبقى على بياضها؟ وهل يضيرُ تلك الزجاجة بعضُ الوسخ العالق فيها من غيرها، لا مِن ذاتها؟»

- «أخي "**محمَّد**"، لو شاء المولى عزَّ وجلَّ لعقَّم الدينَ الإسلامي، والحضارةَ الإسلامية... فالدينُ دينه، والحضارةُ حضارته... إذن لاختار لهما مكانا عليًّا، بعيدا عن أوحال الأرض... بعيدا عن نُباح الكلاب... بعيدا عن مخالب الذئاب...»
- «لكن، أنَّى يُبتلى أتباع هذا الدين؟ أنَّى يُمتحن صنَّاع هذه الحضارة؟ أنِّى يميَّز خبيثنا من

طيِّبِنا؟.»

- «بل، لو شاء المولى الكريم لأبقى آدم وحواء في جنَّة الخلد، لا نصبٌ فيها ولا لغوب... لا تشكيكٌ ولا كفر.. لا تاريخٌ ولا حروب... أفترُانا — نحن أبناء آدم – يكون لنا فضل ومكانة وامتياز؟ أوَلاَ نكون على طريق الملائكة حذو النعل بالنعل؟ بل، ملائكة على الأرض يمشون... يُطيعون ولا يَعصون... يُصيبون ولا يُخطئون؟»
- «ما رأيك — يا فيلسوف زمانه —، يا حامل لواء الواقعية عاليًّا...؟».

* * * * * * *

✍ سكت "**محمَّد**"، وهو يشير إلى يونس بيده أن واصِلْ حديثَك، ولا تقطعه... ودعنا من الأوصاف التي قد تُجهض الفكرة، وتَقضي على الفكر...

واصِل... واصِل... لا تتوقَّف... ولا تضيِّع وقتنا...

✍ **استجاب "يونس"، فقال:**

- «لو كان الأمر كذلك، ولو كانت الحال كما ذكرتُ، ولو كنَّا ملائكة كِراما... لفَقدنا أمرا جوهريًّا في حياتنا، وهو: **الإرادة والاختيار... والحرية في اتخاذ القرار... سنفقد المشيئة، والعقل، والتمييز**... وسنكون قالبا واحداً، بل نسخا طبقَ الأصلِ لوثيقة أصلية واحدة... وحينَها لن يكون لوُجودنا معنى ولا دلالة».
- «**"محمَّد"**، عُد إلى تاريخ الإسلام خطوةً خطوةً... وحقبةً حقبةً... تريَّث وتفكَّر... لا تنظر إلى أبطاله بعين الرضا المطلق، ولا بعين السخط المطلق... فلا هم ملائكة، ولا هم شياطين...».
- «عُد إلى الزجاجة تجِدها أعظمَ واجهة في تاريخ

البشرية، وأروعَ مثال في عالم البشر... ولا يغرَّنَّك الرأي العام، والفكر العام، والإعلام العام...».

* * * * * * *

✍ **"محمَّد"، يسأل يونسَ فجأة، لكن هذه المرَّة بهدوء ورويَّة:**

- «هل تريد أن تُثبت أنَّ ما وقع في تاريخ البلاد الكبرى من حروب، ومن فتن، ومن مظالم... لا يقارَن بما وقع في التاريخ الإسلامي؟»

"يونس":

- «نعم، قارن بين خيرٍ صادرٍ من عَجوز في زاوية غرفةٍ مظلمة... وشرٍّ صادر من رئيس دولة أمام الأشهاد وعلى عيون العالَمين...».
- «هل تعتقد يا **"محمَّد"** أنَّ هذا الشرَّ على كثرته، وهيجانه، وشهرته... يغلبُ ذلكم الخير، على

قلَّتــه، ونمــوِّه الهــادئ، وخفائــه... لا، ليســت العبرةُ في الكثرة، ولا في العدد، ولا في الشـهرة... إنَّما العبرةُ في الحقيقة، إنَّمـا العـبرة في الحـقِّ... بالحق وحده نقيس ونزن الأمور...».

- «أخي "**محمَّد**"، يا واقعيَّ هذا الزمان، ما دامـت الدنيا أرقاما في فكرك، فإنِّي أطالبك بمقارنة عدد القتلى في الحرب العالمية الثانية، بعدد القتلـى في كامل تاريخ الإسلام، من يوم البعثة المحمَّدية إلى يوم الناس هذا...ألا تعلم أنَّ اثنين وستِّين مليـون روحٍ بشريَّة بلا ذنـبٍ قتِلـت، جـرَّاء هـذه الفتنـة المظلمة... وأنَّ هذا العدد كان يمثل اثنين في المائة من تعداد سكَّان العالَم يومئذ؟!»
- «أمـر تُـراك، يـا "صـاحِ"، تنسـب كـلَّ ذلـك إلى الإسلام والمسلمين؟!»

* * * * * * *

✍ شحبت عينا "**محمَّد**"... تبيَّن أنـه أخـذ يتمـتم، ويحرِّك شفتيه بكلمات متتابعة... وبصوت خافت... أراد أن يقتنع، لكنَّ شيئا في جنبات عقله أبقـاه علـى موقفـه وبعـض آرائه... ذلك أنَّ الانتصار هو مبتغى كلِّ إنسان، وأنَّ الهزيمة تخيف كلَّ صاحب عقل وجَنان...

✍ إلاَّ أنَّ "**يونس**" كذلك، لم يشـأ أن يُطـيح بأخيـه حسـيرا... ولم يقبَـل أن يُـردي صـنوَه قتـيلا... ذلـك أنـَّه سيستوحش، وسيبقى مثل حزب عتيد وحيد لا منافس له في برامج الانتخابات... سيكون مثل حـزب عنيـد مـن أحـزاب العهد الاشتراكي البائد... سيفقد – لو قضى علـى نقيضـه – جميع إمكانات الحياة الطبيعية... ولنتصور الكهرباء بموجب دون سالب... أو بسالب دون موجب... هل سيكون ثمة نور ومصباح؟

✍ لأجـل ذلـك، وخوفـا مـن الواحديـة والوحـدة والأحادية، التي هي لله وحده... **استدرك "يونسُ"، فقال**:

- «"**محمَّد**"... أعلمُ أنَّ واقعنا المعاصر اليوم يكـذِّب الـمُثل، ويهزأ بـالحقِّ... أعلـم أنَّ الـدنيا أقبلـت علـى الملحـد، والكـافر، والمنـافق، والظـالم... فوهبتهم السلطةَ والشهرةَ، ومكَّنـتهم مـن أسـباب التخطيط والبحـث، ووضعت بـين أيـديهم آلـة الإعلام وآلة الدمار...»
- «وتعلَم معي، يا "**محمَّد**"، أنَّها أدبرت عن المؤمن — وهـو يتحمَّـل قسـطا وافـرا مـن المسـؤولية — فسلبته كلَّ ذلك، وتركته أعـزل عـاجزا... أشـبه شيء بالعجوز الخيِّرة التي ذكرتها آنفا...».
- «أخـي، أنـا لا أبـرِّر... وأنـت لا تـبرِّر... كِلانـا يبحث عن الحقِّ، ولا شيء إلاَّ الحـقُّ... لا علـى

أسلوب القَسَم الوطني لرؤساء العرب اليوم...:

"أقسم أنْ أقول الحقَّ، ولا شيء غير الحقِّ"

"أقسم أن أنشر العدلّ، ولا شيء غير العدل"

- «ثمَّ، لا حقٌّ ولا عدلٌ... بل الكثيرُ منهم كاذب جائر حتى في هذا القسم نفسه...»

- «أخي، إنَّ بحثنا عن الحقِّ واجبٌ لا مصلحةٌ، صدقٌ لا كذِبٌ... قد نهتدي إليه، وقد لا نهتدي... ولكنَّنا سنظل نبحث ونبحث... حتى نوفَّق أو نلقى حتفنا... ولنكن مُخلصيْن إخلاص والدِينا وإخلاص الخيِّرين من أبناء الأمَّة مشرقها ومغربها...فلا بدَّ لمخلص النية أن يوفَّق»

* * * * * * *

✍ سكتَ "**يونس**" فجأةً... ثمَّ التفت إلى

"**محمَّد**"... وهو يبتسم... ولا يتلفَّظ بكلمة... لكنَّ حالَه كانت أبلغَ من مقاله...

كانت حال "محمَّد" تقول:

– «يا "**يونس**"، ها قد صرتَ واقعيًّا مثلي... وصرتُ أنا مثاليا على نمطك...»

أطرَق "**يونس**" رأسه، اعترافا وخجلا...

فأطرق "**محمَّد**" رأسه، خجلا واعترافا...

✍ من بعيد تبختر صوت الضمير، وعاود الكرَّة مثل ليلة مخيم "بوبال"... ومثل المرَّة الثانية... يوم مغادرة "الأستاذ عمر"...

قالت الأعماق وهي أصدق قائل:

– «"**محمَّد**"... "**يونس**"... تذكَّرا أنَّكما قلبٌ واحد، اسم واحد: "**محمَّد يونس**"... وإن اختلفت الرؤى... فالحقُّ دومًا أبلج، والباطل

أبدا لجلج...»

- «"**يونس**"... "**محمَّد**"... إنكما تعانيان جدلية الانفصام والثنائية، وهي عقدةٌ لازَمَت المسلمين أوان انحطاطهم... كما لازم الإلحادُ والتثليثُ النصارى زمن انحرافهم...»

بصوت واحد متَّحد، نادى "**محمد يونس**" ربَّه...:

"لا إله إلاَّ الله...

سبحان الله....

أستغفر الله..."

المقطع "السابع"

نموذج الرشد: النجاة من بطن الحوت...

بيضـــــــــــــــــــــــــــــــــــاء

✍ عادت الذات إلى ذاتها... وآبت النفس إلى نفسها...

وتبيَّن أنَّ "**محمَّدا**" هو "**يـونس**"، وأنَّ "**يـونس**" هـو "**محمَّد**"... وأنَّ عليهما فقط إصلاح ذات بينهما...

فبدأ البحث عن المخرج من بطن الحـوت، لا بأسـلوب "كلٌّ إلى سبيل"... لكن بمنهج "نجاتي هي نجاتك، ونجاتك رهينـة بنجـاتي"... لا بعقليـة " أنـا وبعـدي الطوفـان" لكـن بمنطق "السفينة"، أو بالأحرى بـ"**نموذج** السفينة".

- بحر واحدٌ...
- سفينة واحدةٌ...
- مصير واحدٌ...
- وجهة واحدةٌ...
- عدوٌّ واحدٌ...
- وقبل ذلك وبعده، ربٌّ واحد، ودينٌ واحد...

... المختلَـــف هـــو الأدوار والقـــدرات، والجهـــود

والطاقات، والآمال والآلام، والأزمنة والأمكنة، والأسماء والمسمَّيات...

شتَّان بين ابن آدم المقتول (هابيل)، الذي قال لأخيه القاتل (قابيل): «**إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك، فتكون من أصحاب النار، وذلك جزاء الظالمين**»... فنجا المقتول، لكنَّ أخاه هلك...

شتَّان بين هذا وبين سيِّدنا محمَّد عليه السلام، وهو يصدُّ الملَك عن إنزال العذاب على أهل الطائف، حين قال له: «**يا رسول الله، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين(جبلين بمكَّة)**».

أجابه عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم:

- «**أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم مَن يعبد الله**» فمنعه صلى الله عليه وسلَّم بروح رحيمة، وقلب شفوق عطوف...

* * * * * * *

✍ ثمَّة عبادة فردية، وعبادة جماعية... وثمَّة شعائر ذاتية، وشعائر حضارية...

قد ينجح الواحد في الأولى، فيسمَّى مؤمِنا ومسلما؛ لكنَّه قد يخفق في الثانية، وهذا الغالب، فيكون غير "**راشد**"...

ولنتصوَّر أنَّ الفتية من أصحاب الكهف انقسم موقفهم، وتفرَّقوا، وتشرنقوا، وتخاصموا... إذن لَما وجدوا عين الله ترعاهم...

ما أروعهم، وهم يأوون إلى الكهف متَّحدين، واعين، متحضِّرين... ويسألون الربَّ جماعة، لا أشتاتا:

– «**ربنا آتنا من لدنك رحمة، وهيئ لنا من أمرنا رشدا**».

* * * * * * *

✍ تصالح "**محمد**" مع "**يونس**" في لحظة من الإشراق

الربَّـانيِّ، ذلـك أنَّ الله ألَّـف بـين قلبيْهمـا، ولا يؤلِّـف بـين القلوب إلاَّ هو... بل، لا يؤلِّف بين أجزاء القلـب الواحـد إلاَّ الواحد الأحد...

تصالحا، وراحا يواجهان الحقيقة، كما هي، ويصنَعان الفرق...

تذكَّرا "بوبال"، وقد نسياها حين كانا متخاصمين...

تذكَّرا وعدهما بالانتقام لـ"بوبال"...

تذكَّرا معركة **الفهم، والوعي، والفعل**...

عاد إليهما ما يشبه التوازن والاتزان...

✍ **قال "محمد" لـ"يونس":**

– «يا أنا، إنَّ نجاتنا مـن المـوت ليلـةَ "بوبـال" كان بفضل الله وحـده... يومهـا كنَّـا اثـنين، فصـرنا واحـداً... جسـدًا وصـورة، مبنًـى ومعنى...

- ثمَّ بعد أمد، لمَّا اكتملت مداركنا، ولمَّا حظينا بالنعم وتمرَّغنا في الرخاء، انقلبنا إلى اثنين، فتخاصمنا عقلا وقلبا، وها نحن اليوم بحمد الله نعود واحدا متناغما، كما كنَّا بحمد الله...»

قال "يونس":

- «وتذكَّر، يا أنا، أنَّنا لُذنا يوم أخطأنا إلى فُهومنا ومداركنا وحدها، أمَّا يوم تُبنا، فقد تجرَّدنا لله وحده، تجرُّد يونس عليه السلام، وهو في بطن الحوت، لا أحدَ يسمعه، ولا أملَ في نجاة، فنادى ربَّه صادقا، مخلصا الدعاء لله وحده:

- **«لا إله إلاَّ أنت، سبحانك، إني كنت من الظالمين»**.

فأنجاه الله يومها بفضله، وأنجانا الله اليوم بكرمه ومنِّه...

* * * * * * *

قال "محمَّد"، مستدركا:

- «بعد النجاة، عادة ما ينتظر الناسُ الراحةَ، ويأملون في الاسترخاء؛ لكنَّ الصواب أنَّه بعد النجاة يأتي الجهاد والاجتهاد... ولنا عبرة ومثال في "ذي النون" الذي أرسله الله — بعد نجاته — إلى مائة ألف أو يزيدون، فدعاهم، وجاهد فيهم... فآمنوا...
- ونحن، بعد النجاة من الموت في "بوبال"، أجهدنا أنفسنا في الطريق الصحيح، وبعد النجاة من بطن الحوت، ومن شبح الانفصام... وجب علينا أن نضاعف

اجتهادنا وجهادنا».

- "بوبال" رمز للكارثة، وحالُ المسلمين اليوم كلَّه "كارثة"... فما أيسر أن ينجو المرءُ من الموت، لأنَّه مجبر لا مخير... لكن، من الصعب أن ينجو المرء من التخلُّف، والجهل، والفقر، والعجز، والضياع، واللامعنى، والاختلاف، والعبثية، واللافعالية... وغيرها من مستنقعات الأفراد والجماعات...».

✍ **تدخَّل "يونس" بعقليته العلمية التحليلية، وقال:**

- «لكلِّ عنوان من عناوين تلك المستنقعات، يجب أن نبذل قُصارى جهدنا... نعم، قد نوفَّق في بعضها، وقد نخفق في البعض

الآخر... المهمُّ أن نكون في الاتجاه الصحيح، وعلى الطريق... لا عكس الاتجاه، أو خارج الطريق...

- «ليس لنا أن نجزِّئ كلَّ مشكلة على حده، بل الواجب يحتِّم علينا أن نبحث عن "**نموذج**... عن "**رؤية كونية كلية**"، عن "**منظور شمولي**"، عن "**باراديم**"...
- وإذا وفِّقنا في بحثنا، واهتدينا إلى مطلبنا هذا، لحق الخيرُ كلَّ باب، وسقى المطر كلَّ شبر من تراب... فعمَّ النفع، وزها الزرع».

* * * * * * *

✍ **ظهرت علامة الاستفهام على جبين "محمَّد"، فقال:**

- «تريَّث يا فيلسوف العرب، وقل لي: ماذا تعني **بالنموذج**، وماذا تقصد بكلٍّ

المصطلحات التي سردتها عليَّ سردًا مفصَّلا...»

قال "يونس":

- «قد نفهم أمور الحياة مجزَّأة، لا رابط بينها... فذلك فهمٌ سطحيٌّ معلوماتيٌّ وضعيٌّ... وللأسف، كثير من الناس لا يتخطَّى هذه العبتة...
- وقد نستوعب هذه الأمورَ مجملةً، وندركُ الروابط التي تربط بين أجزائها... فهذا فهم أدقُّ وأشمل وأعمق... وقليل من الناس من يصل هذا المستوى.
- والأهمُّ من كلِّ ذلك، أن نكتشف **المنطق الذي يُسيِّر جزئيات الحياة، المنطق الذي يتحكم في تغيُّرها من مرحلة إلى أخرى، المنطق**

الذي يفسِّر تفاعلها... فإذا ما اكتشفنا هذا المنطق، سهُل علينا فهم ما مضى، وقياس ما هو آت، ولم تخدعنا المظاهر الهامشية، والمتغيِّرات الثانوية... بل نركِّز على الحقيقة في عمقها لا على الحقائق في تشتتها... على الواقعة في جملتها لا على الوقائع في تضاربها....».

- **ذلك "المنطق" الذي يفسِّر موقفنا من كليات الوجود: "الله"، و"الطبيعة"، و"الإنسان"...**
- **ذلك "المنطق" الذي يسبق المعرفة ويؤسس مسارها...**
- **ذلك "المنطق" هو الذي نسمِّيه "النموذج"، و"البراديم"، و"المنظور"، و"الرؤية**

الكونيـــة الكليـــة"... ومـــا إليهـــا مـــن مترادفات».

* * * * * * *

✍ **"محمَّد"**، كأنَّه أحسَّ بـ**"يونس"** يلعب في ملعبه، ويتحدَّث عن الواقعية، يسأل:

- «مـا الفـرق بـين الحقيقـة والحقـائق، وبـين الواقعـة والوقـائع؟ ألـيس الأوَّل منهمـا مفـرد والثاني جمـع؟»

"يونس":

- «في القـــاموس اللغـــوي البســـيط، أنـــت محقٌّ،ولكن بلغة الفكر هنالك اختلاف كبير، **فالحقيقـة** كاملـة شـاملة لهـا منطـق وفلسـفة تسـيِّرها، أمَّـا **الحقـائق** فهـي متفرِّقـة، لا يجمعهـا جـامعٌ، ولا منطـقٌ يحكـم مصـيرها

وصيرورتها... وكذلك الأمر بالنسبة للواقعة التي نقول عن صاحبها إنه الواقعيٌّ، أمَّا الذي يجمِّع أشلاء الوقائع ليصنع منها فسيفساء فكرية، فنصِفه بأنه وقائعيٌّ...»

✍ **"محمد"، بشيء من الطرفة، بغية تلطيف الجوِّ المشحون بالتحليل العميق:**

– «ماذا تعتبرني أنا يا "يونس": واقعياً، أم وقائعياً؟»

"يونس"، بالجدية المعهودة لديه:

– «لا يختلف اثنان أنَّك في صفِّ الواقعية، وهل في ذلك شكٌّ؟ لكنَّك أحيانا، – وأنا كذلك، في بعض الأحيان — تنزلق إلى الوقائعية... فهل نسيتَ يوم حشرتَ **وقائع** من تاريخ الإسلام لتقنعني بصدق ما ذهبت إليه؟»

"محمَّد":

- «باسم الواقعية، أدعوك إلى العودة إلى "بوبال"، لا تحلِّق بنا طويلا في سماء التجريد، فإنِّي لا أطيق... ماذا عن "بوبال"؟ هل من فهمٍ جديد لِما ألمَّ بها وبنا، هل من مدخل باعتماد "**النموذج**"، و"**البارادِيم**"؟»

"يونس"، يوافق على المقترح، ويؤكِّد عليه:

- «صدقتَ... إنَّ الطائر إذا حلَّق ولم يعُد إلى عشِّه ليحمِل إلى أهله خيرات المدى، مآله الضياع... أمَّا الطائر الذي لا يغادر عشَّه خشية التحليق والمخاطر، فمصيره الفناء...
- عُشُّنا الأول هو "بوبال"، وعُشُّنا الأكبر هو "الهند"، ثم أكبر منها العالَم الإسلامي، ثم العالم بأسره...

– أخي "**محمَّد**"، إنك لو كنت مكان مدير شركة المبيدات السامَّة، أقصدُ الشركةَ الأمريكية للكيماويات "UCC"، وحدثت الكارثة، فمات جرَّاءها الآلالف... ماذا كنت تحسُّ وماذا تفعل...؟»

"**محمَّد**"، **متعجبا من السؤال ذي الجواب البديهي**:

– «معاذ الله، أنا لا أتحمَّل قتل روح واحدة، روحِ عصفور غرِّيد، أو نملة عمَّالة... فكيف أطيق على تحمُّل موت إنسان بسببي... لا... لا... مستحيل أن أتصوَّر قتل الآلاف، مهما كانت الأسباب... إنِّي أخشى عقوبة الملك الديان، أخاف من هول الحساب الأكبر... فالإنسان عندي هو أكمل معنى من معاني الحياة، روحه مقدَّسة عند الله، وظلمه ظلم

للوجود كلِّه...»

"يونس"، في هدوء ووضوح:

– «اللهُ... الـروح... الإنسـان... الحيـاة... الموت... الآخرة...المقدَّس... الظلم... كلُّها **حقائق كونيـة كـبرى**، فهـي المكوِّنـة لعمـق **"نموذجـك المعـرفيِّ"**، وهـي أسـاس **"رؤيـاك الكونية"**، وهي لـب **"منظـورك"**... إنَّ هـذا الموقف من الحقائق الكـبرى هـو **"البـارادِيم"** الذي تفهم بـه الأشـياء، وتتخـذ مـن منطلقـه وبمنطقه القرارت»

"محمَّد"، سائلا:

– «لماذا أولئك القتلـة في "بوبـال"... لا يفكِّـرون مثلي ومثلك؟»

"يونس":

- «أصبت قلبَ الموضوع، ووضعتَ اليد على الحقيقة... وفهمتَ المعنى بعمق... لكنَّك، فقط، لم تعبِّر عن ذلك بالمصطلح واللفظ الفكريِّ... ها قد صرتَ فيلسوفا مثلي... بل، فيلسوفا واقعيا أفضل مني بأشواط...
- "**محمَّد**"، إنَّ الذين ذكرتَهم لا يفكِّرون مثلنا، ولا يعمَلون مثلنا، ولا يُحسُّون مثلنا... لأنَّ **نموذجهم المعرفي** مختلف عن **نموذجنا**... ولأنَّ **رؤياهم الكونية** تختلف عن **رؤيانا**...
- **فاللهُ** في فكرهم ماتَ منذ أمدٍ، ثم ألَّهوا **الإنسان** فأخذ مكان الإله... ثمَّ ما لبثوا أن قتلوا **الإنسان** وتحوَّل إلى وسيلة في المنظومة المادية...
- **والحياةُ** معنى خرافي لا قيمة له، في نموذج

هؤلاء الجُناة... **والموت والآخرة** خارجة عن دائرة المحسوس والمحسوب... فلا ينظر إليهما إلاَّ بمعنى الأسطورة والخرافة...

- الأهم في منظور هؤلاء الظلمة هو **المصلحة** الآنية المحسوبة، التي تحقق التفوق لأمريكا وللغرب... ولو على حساب شعوب برمَّتها... **والقتل والظلم** لهذا الهدف النبيل أمرٌ مشروع، بل هو بطولة وأيُّ بطولة... ولتذهب القيم إلى الجحيم».

"محمَّدٌ"، مستنكرا:

- «ماذا عن الضحايا؟ ماذا عن الأرواح المزهوقة؟ أليسوا بشرا من حقِّهم أن يعيشوا؟»

"يونس":

- «**ضحايا** المستعمرات، **وضحايا** الحرب

العالمية، **وضحايا** "بوبال"، **وضحايا** لبنان، **وضحايا** العراق... كلُّهم مجرَّد "أشياء" وقفت أمام المشروع العالمي، فلتُزَل ولتَتَنحَّ عن الطريق...»

قال "محمَّد":

- «لكنَّ البعض، بل أغلب المستكبرين الذين ذكرتهم، هم مسيحيون، أصحاب ديانة سماوية... المفروض أنَّ نموذجهم هو ذات نموذجنا... أليست المسيحية واليهودية شقيقتان للإسلام؟»

أجاب "يونس":

- «نعم، لو أنهما بقيتَا على الفطرة، ولو أنَّهما لم تُشوَّها، ولو أنَّهما لم تلتقيا بالفلسفة الإلحادية من لدن اليونان إلى اليوم...

- نعم لو أنَّ عيسى وموسى وغيرَهم من الأنبياء كانوا هم المصدر والطليعة... أمَا وإنَّ الكثيرين قد شاركوهم نبوَّتهم في نموذج الغرب، وصارت الديانة ناسوتية فكرية لا علاقة لها بالسماء، فما "كَانط" و"هيغل"... وما "ماركس" و"إنجلز"، وما "داروين" و"فرويد"... **سوى أنبياء جدد، صاغوا للغرب رؤياه الكونية، وحدَّدوا له مواقفه ومناهجه وخياراته الكلية**»

"محمدٌ"، وهو يحاول أن يدقق المعنى أكثر وأكثر، فيسأل:

- «وماذا عن حفلات عيد الميلاد في الغرب؟ أليست دليلَ تدين، وصورةً لاحترام الدين واتباعه؟»

"**يونس**":

- «هـــي مناســبات **للاســتهلاك** وكفــى... **الاســتهلاك** الــذي صــار **محــور النمــوذج الغربي**، تعويضا عن الفـراغ الكـوني.... بـل لقد تحوَّل **الاستهلاكُ** إلى ديانة جديد....»

يواصل "**يونس**" حديثه المفيد:

- «أنا الآن يـا "**محمَّـد**"، أسـألك مـا العمـل في شأن "بوبال"؟ بعد كلِّ هذا التحليل»

"**محمد**":

- «**الفهم... ثم الوعي... ثم الفعل**... باختصار شديد علينا أن نعمـل بنـاء علـى **نمـوذج**، لا بناء على معلوماتٍ مشوَّشة، ووقائع مبعثـرة، وحقائق متفرِّقة ...»

"**يونس**"، وقد أعجب بدقَّة "**محمَّد**" وفعاليته:

– «لـيكن هـذا **النمـوذج هـو نمـوذج الرشـد** .. تذكَّر وصايا الأستاذ عمـر يـوم تركنـا لـذاتنا، وقال لنا: كن رشيدا... راشدا...مرشدا...

– تذكر، يا أنا، دعاءَ أبينا يوم آوينا إلى العـالم الجديد "كالكيتا"، وهو دعاء الفتيـة: "**ربنـا آتنا من لدنك رحمة، وهيـئ لنـا مـن أمرنـا رشدا**"...

قاطع "محمدٌ" "يونسَ"، وقال:

– «ولنكن واقعيين أكثر، فعَّالين أكثر: ما العمل في شأن "بوبال"؟»

"يونس" وقد عادت إليه الكرة:

– «العمـل في جبهـتين، همـا: **جبهـة العلـم، وجبهـة العمل**:

– أمَّا الجبهة الأولى، فدليلنا عليها قصَّة موسـى

مع الخضر، حين قال له: "**هل أتبعك على أن تعلمِّني مما علِّمت....**"، ولم يتوقف هنا، بل زاد: "ممَّا علِّمتَ **رشدا**"... أي قدرةً على الفهم والوعي والنظر في أعماق الأشياء ومنطقها...

- وأما الجبهة الثانية، فدليلنا عليها "ذو القرنين" حين آتاه الله "**من كلِّ شيء سببا**"... لم يغفل الأسباب، ولم يبق في مرحلة التنظير لها... لكنَّه "**اتَّبع سببا**"... وراح "يفعل" و"يعمل" و"يبني" و"يؤسِّس" حضارات بكلِّ معاني الرشد... ولم تُثنِه أسوءُ الظروف، يوم وجد "**قوما لا يكادون يفقهون قولا**"... فبنى لهم سدًّا منيعا حصينا، لم يستطع المفسدون اختراقه، ولم

يستطيعوا له نقْبا»

قال "محمد"، وعلامات الرضا تسطِّر جبينه:

- «الآن فهمتُ الكثير ممَّا خفيَ عليَّ من قبلُ... لكن، **ألا يمكن أن تكون أنت الفكر وأنا الفعل... أنت العلم وأنا العمل...؟ ألا يمكن أن تتعايش المثالية مع الواقعية جنبا إلى جنب؟**»

"يونس"، وقد أدرك عمق السؤال ومغزاه:

- «"**محمَّد**"... لو قسمنا الأدوار لوقعنا ثانية في **الانفصام**، ولعدنا مرَّة أخرى إلى بطن الحوت... ولَما نجونا من محنتنا السابقة...
- **الانفصام** يا "**محمد**" هو مستنقع وقع فيه أحفاد الحضارة الإسلامية اليوم... مستنقع علينا أن ننقذها منه، لا أن نزيدها غرقا...»

"**محمَّد**":

- «نعوذ بالله من **الانفصام**... نعوذ بالله من تلك الساعات الأولى من الليل... نعوذ بالله منها...»

"**يونس**":

- «بل، نحمد الله على ساعات الاختلاف البنَّاء والحوار المجدي... فهي التي فتحت أمامنا هذه الآفاق الرحبة... إنها ساعات "**القلق الوجوديِّ**"، ساعات أعقبها "**الفكر الكونيُّ**"، و"**التفكير المنظَّم**"... وسيليها بإذن الله "**الفعل المخطَّط**" و"**العمل الصالح**"... إنَّ تلك الساعات هي بداية الحضارة... هي بذرة الحضارة...»

"**محمد**"، **باعتزاز وثقة في النفس**:

– «هي ساعات **الانتقام** الحقيقي من "بوبال"... **بالفهم، والوعي، والفعل...**»

* * * * * * *

ارتفع صوت المؤذن:

«الله أكبر... الله أكبر... »

قام "**محمَّد يونس**" مسرعا، فتوضَّأ، وقصد المسجد النبويَّ، بجوار النزل... وهو حاجٌّ ضمن الحجاج، ذلك العام...

تلا الإمام في صلاته آيات من سورة الكهف:

في الركعة الأولى: "**وإذا قال موسى لفتاه... إلى..... ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا**"

وفي الركعة الثانية قرأ: "**ويسألونك عن ذي القرنين...**" إلى آخر السورة: "**فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا، ولا يشرك بعبادة ربه أحد**"

المقطع "الثامن"

...والتقينا على قدَر

(...)

بيضـــاء

✍ كنتُ، حاجًّا من الجزائر، في وفد يضمُّ الأهل والأصدقاء... جئنا إلى هنا برًّا... وكم في الحجِّ القديم من فوائد يجنيها الناس في طريقهم الطويل...

* * * * * * *

كنت أعتقد – ولا أزال – أنَّ الحجَّ حجَّان: حجٌّ فرديٌّ، وحجٌّ جماعيٌّ... حجٌّ شعائريٌّ وحجٌّ حضاريٌّ... حجٌّ ليسقط التكليف على ذات المكلَّف، وآخر ليتحقق التمكين لدين الله...

من هنا اعتدت على البحث – في حَجَّتي هذه – عن حُجَّاج من مختلف المشارب لأتجاذب معهم أطراف الحديث، وأقيم معهم أمتن العلاقات، ولنُفكِّر سويا في هموم المسلمين، وفي المخرج منها... وكان حرصي كبيرا أن لا يكون هؤلاء المتحاورون من نفس طينتي... مخافة أن نكرِّر نفس العبارات، ونعيد نفس الأطروحات، فنكرِّس العجز في شتى

المستويات...

لـيكن محـاوري تركيًّـا، أو نيجيريًّـا، أو ماليزيًّـا، أو أمريكيًّا...

وفي تلك الصبيحة، بعد إتمام صـلاة الجماعـة بالمسـجد النبويِّ الشريف، والسماع لآي الذكر من سورة الكهـف تتلـى علينـا كأنَّهـا تنـزَّل مـن السـماء علـى قلـب المصـطفى في مقصورته... في تلك الصبيحة المقدَّرة — وللقدر أسرار — شـاء الله تعالى أن أجلـس بجـوار شـابٍّ وقـور، عليـه مُسـحة مـن السُّمرة الآسيوية الصافية، شعره رقيق فـاحم اللـون... عينـاه غائرتان.

سلَّمتُ عليه، وجلست إلى جواره...

أجابني بوقَار...

حدَّثتـه بالانجليزيـة، وهـو أفصـح منِّـي فيهـا لسـاناً، فأجابني بالعربية، وأنا أبلغ منه فيها بيانا...

وتراوح حديثنا بين عربية وإنجليزية... ذلك أنِّني كلَّما عـدمتُ معنـى مـن قاموسـي الانجليـزي لُـذت بلسـان "الجاحظ"... وكان هو كلَّما افتقد القدرة على صياغة دلالة بالعربية استغاث بلغة "شكسبير"...

سألته السؤال التقليدي:

– «ما اسمك؟»

قال:

– «محمَّد يونس مهانجير»

قلت بعفويتي:

– «مسلم والحمد للّه... من باكستان؟»

أجاب:

«الحمد للّه، الحمد للّه... أنا مسلم من الهند... من قارة الهند كما يسمُّونها»

قلت:

«من "كالكيتا"؟ (ذلك أنَّني – للأسف – لم أكن أعرف شيئا عن مسلمي الهند، ولا مدينة من مدنهم إلاَّ "كالكيتا")»

قال:

– «نعم، من "كالكيتا" سكنًا، ولكنَّ أصلي من "بوبال"، جنوب العاصمة "دلهي"»

سألته متعجبا:

– «بوبال؟»

قال:

– «نعم، "بوبال"»

قلت:

– «كيف نكتبها؟»

أمددته بقلم وقرطاس، فكتب بخطٍّ لاتيني جميل "Bhopal"، **ثمَّ التفت إليَّ وقال:**

– «أخي، هذا أنا، وأنت ما اسمك؟ ومن أيِّ بلد؟»

أجبته وأنا أهجِّي الحروف حرفا حرفا؛ ذلك أنَّ أسماءنا أحيانا يصعب فهما على المشارقة:

– «محمَّد موسى باباعمي»

قال:

– «هل موسى هو اسمك الثاني؟»

قلت:

– «لا، هو اسم والدي، أي: محمد بن موسى...»

قال:

– «أمَّا أنا، فيونس هو اسمي الثاني، وليس اسم والدي رحمه الله...: محمد يونس»

* * * * * * *

✍ طال الحديث، وشدَّ انتباهي دماثة أخلاقه، وتواضعه الجمّ، وسعة معارفه... فألفيت نفسي قزما أمامه... ووجدت تجربتي أمام تجربته كلاشيء...

✍ فتسارعت الدقائق البكورية، وطاب المقام، حتى تنفَّس الصبحُ، وآذنت الشمس بالشروق... وقد عرفتُ عنه الكثير، وعرفتُ أكثر عن "بوبال" — فكأنَّه كان يسارع الزمن ليبلِّغ رسالة "بوبال" إليَّ، لعلَّ القدر يستعجله أو يستعجلني ...—

وعرفت عن "كالكيتا"، وعن "الإسلام المقهور في الهند"، وعن "جهل العرب المسلمين بحقيقة إخوانهم في الهند وغيرها..."

* * * * * * *

لم يكن "**محمَّد يونس**" يُصدر الإحكام قاسية جافَّة، شأنَ الكثير من أبناء المجتمعات المظلومة المقهورة؛ لكنَّه كان جدليا سُقراطيًّا، يُكثر من الأسئلة والاستفهامات والإشكالات... ممَّا قوَّى حجَّته، وأسلس فكره...

* * * * * * *

✍ في برهة من الزمن، خلال الحوار الطريف المثير... سرَحَت أفكاري وسافرت، وأجريت جراءها حوارا داخليا لم يطُل...:

- «يا محمَّد، يا ابن الجزائر، ألا ما أجهلك... وما أبعدك عن إخوانك المسلمين عبر العالَم، هل إلى هذه الدرجة شغلتك المحليات مذهبيا وجغرافيا عن العالَم... وعن الكونية... وعن العالمية... وعن آفاق رسالة ربِّ العالمين؟».
- «يا هذا، تيقَّن أنَّ ما آل إليه حال "بوبال" قبل الكارثة وبعدها، إنَّما هو بتقاعسنا — نحن العرب، ونحن المسلمون من قديم —، لقد أقعَدَتْنا همَّتنا، فاشتغلنا بالسفاسف عن المعالي».

* * * * * * *

✍ توجَّهتُ إلى أخي، وصديقي المسلم "الهنديِّ

البوبـاليِّ" الجديـد، وقـد تحرَّكَـت إرادة فولاذيـة في داخلـي تدعوني إلى المشاركة في "الانتقام" لـ"بوبال"، بما اقترح علـيَّ "مهانجير":

– «بـالفهم، ثـمَّ بـالوعي، ثـمَّ بالفعـل والعمـل والفعالية...»

قلت له:

– «هـل لـديك صـور عـن "بوبـال"، أو عـن "الكارثة"...»

لم يتلفظ بكلمة، ولغـةُ الحركـة أبلـغ أحيانـا مـن لغـة اللسان... فـأخرج مـن جيبـه هاتفـا محمـولا، مـن نـوع "أي فون"... وفتح نافذة "الصـور"، فأخـذ يعرضـها علـيَّ واحـدة واحدة، ويشرح لي ما أرى:

– «هـذه حديقـة داخـل مدينـة "بوبـال" قبـل الكارثة...

- انظر، إنها صورة المصنع، وهذا أبي أمام مدخله الرئيس...
- وهذه بوبال، بعد الكارثة بثماني سنوات...
- هذه صور بعض المشوَّهين، أخذتها من الأنترنت...
- وهذا حفل تخرجي في الجامعة...»

✍ باغته، بسؤال، قد يخدم فكرتي، وقد يحقِّق رغبتي:

- «والكتابةُ، والمذكرات؟ (ذلك أنِّي مولع بكتابة المذكرات، وهي لا تغادرني سفرا ولا حضرا، فرحا ولا طرحا...)»

قال:

- «نعم، طبعا... كتبتُ بعض المذكرات بالإنجليزية، ولا أزال أضيف فيها... فبعضها

معي هنا... وبعضها الآخر تركته في مكتبي... مرقونا...»

ظننتُ أنَّ ما كتب قد يعتبره صاحبي سرًّا، وقد يمنعه عنِّي لو طلبته... ... لكني تذكرت مثالا حكيما يقول: "أمَّا "**لا**" فهي عندك في جيبك، وأمَّا "**نعم**" فمَن يدري لعلَّك تُحظى به... فقط حاول"

فحاولت، وسألت:

«هل في الإمكان أن تزوِّدني بما كتبت، فأستفيد منه وأفيد...؟»

أجابني "مهانجير":

«نعم، إن شاء الله تعالى، فقط أعطني عنوانك الإلكتروني...؟»...

* * * * * * *

✍ بعد شهر من الزمان أو يزيد... فتحتُ علبتي،

وإذا فيها رسالة واردة من عنوان جديد عليَّ، كُتب في خانة العنوان: "ادع الله "لبوبال"... وكان العنوان بالحرف هكذا:

"mym-bhopal1984@gmail.com"

✍ فتحتُ الرسالة بشغف منطقع النظير، فوجدت المذكِّرات، أو بالأحرى القصَّة... جمدت عيناي ثوانٍ، وناديت بأعلى صوتي:

- «**الحمد لله... الحمد لله... اللهمَّ فرِّج عن "بوبال"، وعنَّا...** »

✍ قرأتها مسترسلة، فحِرتُ في أمرها، وقد صعُبت عليَّ بعض الكلمات، وندَّت عن فهمي بعض العبارات... تساءلت بعدها:

- «**هل هذه مطارحة فكرية؟ أم هي مذكرات وجدانية؟ أم هي قصَّة؟ أم رواية؟..**»

ثم أجبت، وكأنِّي أحاول طمأنة نفسي:

– «المهمُّ أنَّها قطعةٌ تاريخيَّة، ووحدةٌ فكرية، ولوحة أدبيَّة فنيَّة... أبانت عن المقصود، فدَفعتني دفعا إلى تبنِّي قضية "بوبال"، والعيش معها بالقلب والعقل معاً»

* * * * * * *

✍ أرسلت رسالة إلى أخي "**محمد يونس مهانجير**"، عبر البريد الإلكتروني، مباشرة بعد إتمام القراءة، شكرتُه وأثنيت عليه... ثمَّ طلبتُ منه أن يسمح لي بترجمتها إلى العربية، ويقبل منِّي جملةً من الإضافات حتى تلائم ذوق القارئ بالعربية...

كان سخيا جدا، كما عهدته من أول يوم التقيت به في الحرم المدنيِّ، فأجابني قائلا:

– «هي لك، افعل بها ما تشاء، ولا تسلني... المهمُّ أن تخدم قضيتنا... وأن تصف بصدق حالنا –

نحـن مسـلمي الهنـد – وحـال أمَّتنـا الإسـلامية جمعاء...»

* * * * * * *

✍ منذ ذلك التاريخ، وأنا أجتهـد في ترجمـة الـنصِّ إلى العربيـة، وأسـتعين بمـن هـو أقـدر علـى فهـم الأدب الإنجليزي... وأطالع الكتب والمقالات، وأطلـع علـى المواقـع والمجـلات... لتطعـيم "القصَّـة" أو إن شـئت فسـمِّها "المذكرات"...

✍ ها هي اليوم كما هي... بل، كما أرادها الله تعالى أن تكون... قصَّة ومذكِّرات تتراوح أحـداثها وتفاصـيلها بـين الواقع والخيال... واقعُها أكثر عجبا وغرابة من خيالها...

ولِمـن أراد الاسـتزادة أن يتَّصـل بصـاحبها الأصـلي، صديقي العزيز "**محمد يونس مهانجير**"، لعلَّه يجد الجواب عمَّا يختلج في ذهنـه مـن تسـاؤلات واستفسـارات... أو لعـلَّ

يساهم بما آتاه الله في نصرة قضية "بوبال"، وفي التفريج عن أهلها المسلمين....

أمَّا مَن تردد في الاتصال به لسبب أو لآخر... فليعلم أنَّ هذا الشاب هو أنا وأنت، ذلك أنَّ الحقيقة تبقى واحدة ناصعة بيِّنة... لا غبار عليها... حتى وإن اختلف الزمان والمكان، وتباين الحال والمآل... إنها حقيقة "كارثة" عنوانها العريض: "**بوبال**"...

بين يدي القارئ العزيز...

* مذكراتُ شاب مسلم هرب من الموت بأعجوبة ؛ ثم نجا من التخلف بامتياز، فأسَّس حياته ومواقفه ورؤاه الكونية على قاعدة من **نموذج الرشد**...
* قصَّةٌ تتراوح أحداثها وتفاصيلها بين الواقع والخيال، موجَّهة لكلِّ شاب رِجله الأولى في المرحلة الثانوية والأخرى في الجامعة ؛ وهي مفيدة لكل قارئ بروحه، وعقله، وقلبه، وضميره...
* هذا الشاب هو: أنا وأنت...ذلك أنَّ الحقيقة تبقى واحدة ناصعة بينة... لا غبار عليها... حتى وإن اختلف الزمان والمكان، وتباين الحال والمآل...
* إنها حقيقة "كارثة" عنوانها العريض: "**بوبال**"

بين يدي القارئ العزيز...

* مذكراتُ شاب مسلم هرب من الموت بأعجوبة ؛ ثم نجا من التخلف بامتياز، فأسَّس حياته ومواقفه ورؤاه الكونية على قاعدة من **نموذج الرشد**...
* قصَّةٌ تتراوح أحداثها وتفاصيلها بين الواقع والخيال، موجَّهة لكلِّ شاب رِجله الأولى في المرحلة الثانوية والأخرى في الجامعة ؛ وهي مفيدة لكل قارئ بروحه، وعقله، وقلبه، وضميره...
* هذا الشاب هو: أنا وأنت...ذلك أنَّ الحقيقة تبقى واحدة ناصعة بينة... لا غبار عليها... حتى وإن اختلف الزمان والمكان، وتباين الحال والمآل...
* إنها حقيقة "كارثة" عنوانها العريض: "**بوبال**"